الفصل الرابع

الفتوحات في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه

تمهيد:

شجع خبر مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أعداء الإسلام وخصوصاً في بلاد الفرس والروم على الطمع في استرداد ملكهم، فبدأ يزدجرد ملك الفرس يخطط في العاصمة التي يقيم فيها وهي مدينة (فرغنة) عاصمة سمرقند، وأما زعماء الروم فقد تركوا بلاد الشام وانتقلوا إلى القسطنطينية العاصمة البيزنطية وبدأوا في عهد عثمان في البحث عن الوسائل التي تمكنهم من استرداد ملكهم، وكانت بقايا جيوش الروم في مصر وقد تحصنوا بالإسكندرية في عهد عمر بن الخطاب، فطلب عمرو بن العاص منه أن يأذن بفتحها، وكانت معززة بتحصينات كثيرة وكانت المجانيق فوق أسوارها، وكان هرقل قد عزم أن يباشر القتال بنفسه ولا يتخلف أحد من الروم، لأن الإسكندرية هي معقلهم الأخير[1]، وفي عصر عثمان تجمع الروم في الإسكندرية وبدأوا يبحثون عن وسيلة لاسترداد ملكهم فيها حتى وصل بهم الأمر إلى نقض الصلح واستعانوا بقوة الروم البحرية[2]، فأمدوهم بثلاثمائة سفينة بحرية تحمل الرجال والسلاح، ولقد واجه عثمان ذلك كله بسياسة تتسم بالحسم والعزم وتمثلت في الخطة الآتية:

1 ـ إخضاع المتمردين من الفرس والروم وإعادة سلطان الإسلام إلى هذه البلاد.

2 ـ استمرار الجهاد والفتوحات فيما وراء هذه البلاد لقطع المدد عنهم.

3 ـ إقامة قواعد ثابتة يرابط فيها المسلمون لحماية البلاد الإسلامية.

4 ـ إنشاء قوة بحرية عسكرية لافتقار الجيش الإسلامي إلى ذلك[3].

---

(1) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص(221).

(2) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين، ص(324).

(3) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص(222).

obeikandl.com

كانت معسكرات الإسلام ومسالحه في عهد عثمان هي عواصم أقطاره الكبرى؛ فمعسكر العراق: الكوفة والبصرة، ومعسكر الشام في دمشق بعد أن خلص الشام كله لمعاوية بن أبي سفيان، ومعسكر مصر وكان مركزه الفسطاط، وكانت هذه المعسكرات تقوم بحماية دولة الإسلام ومواصلة الفتوحات، ونشر الإسلام[1].

المبحث الأول

فتوحات عثمان في المشرق

أولاً: فتوحات أهل الكوفة: أذربيجان 24هـ:

كانت مغازي أهل الكوفة الرّي وأذربيجان، وكان يرابط بهما عشرة آلاف مقاتل: ستة آلاف بأذربيجان، وأربعة آلاف بالرّي، وكان جيش الكوفة العامل أربعين ألف مقاتل، يغزو كل عام منهم عشرة آلاف، فيصيب الرجل غزوة كل أربعة أعوام، ولما أخلص عثمان رضي الله عنه الكوفة للوليد بن عقبة انتفض أهل أذربيجان، فمنعوا ما كانوا قد صالحوا عليه حذيفة بن اليمان أيام عمر، وثاروا على واليهم عقبة بن فرقد، فأمر عثمان الوليد أن يغزوهم، فجهز لهم قائده سلمان بن ربيعة الباهلي، وبعثه مقدمة أمامه في طائفة من الجند، ثم سار الوليد بعده في جماعة من الناس، فأسرع إليه أهل أذربيجان طالبين الصلح على ما كانوا صالحوا عليه حذيفة، فأجابهم الوليد وأخذ طاعتهم، وبث فيمن حولهم السرايا وشن عليهم الغارات، فبعث عبد الله بن شُبيل الأحمسي في أربعة آلاف إلى أهل موقان والبير والطيلسان، فأصاب من أموالهم وغنم وسَبَى، ولكنهم تحرزوا منه فلم يفلَّ حدهم، ثم جهز سلمان الباهلي في اثني عشر ألفاً إلى أرمينية فأخضعها، وعاد منها مليء اليدين بالغنائم، وانصرف الوليد بعد ذلك عائداً إلى الكوفة[2].

ولكن أهل أذربيجان تمردوا أكثر من مرة، فكتب الأشعث بن قيس والي أذربيجان إلى الوليد بن عقبة فأمده بجيش من أهل الكوفة وتتبع الأشعث الثائرين وهزمهم هزيمة منكرة، فطلبوا الصلح فصالحهم على صلحهم الأول، وخاف الأشعث أن يعيدوا الكرة فوضع حامية من العرب وجعل لهم عطايا وسجلهم في الديوان، وأمرهم بدعوة الناس

(1) عثمان بن عفان، صادق عرجون، ص(199، 200).
(2) تاريخ الطبري (5/ 246).

إلى الإسلام، ولما تولى أمرها سعيد بن العاص عاد أهل أذربيجان وتمردوا على الوالي الجديد، فبعث إليهم جرير بن عبد الله البجلي فهزمهم وقتل رئيسهم، ثم استقرت الأمور بعد أن أسلم أكثر شعبها وتعلموا القرآن الكريم، وأما الري فقد صدر أمر الخليفة عثمان إلى أبي موسى الأشعري في وقت ولايته على الكوفة، وأمره بتوجيه جيش إليها لتمرُّدها، فأرسل إليها قريظة بن كعب الأنصاري فأعاد فتحها[1].

ثانياً: مشاركة أهل الكوفة في إحباط تحركات الروم:

عندما انتهى الوليد بن عقبة من مهمته في أذربيجان وعاد إلى الموصل، جاءه أمر من الخليفة عثمان نصه: (أما بعد، فإن معاوية بن أبي سفيان كتب إليَّ يخبرني أن الروم قد أجلبت[2] على المسلمين بجموع عظيمة، وقد رأيت أن يمدهم إخوانهم من أهل الكوفة، فإذا أتاك كتابي هذا، فابعث رجلاً ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف إليهم من المكان الذي يأتيك فيه رسولي[3]، والسلام) فقام الوليد في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد أيها الناس، فإن الله قد أبلى المسلمين في هذا الوجه بلاءً حسناً، ورد عليهم بلادهم التي كفرت، وفتح بلاداً لم تكن افتتحت، وردهم سالمين غانمين مأجورين، فالحمد لله رب العالمين. وقد كتب إليَّ أمير المؤمنين يأمرني أن أندب منكم ما بين العشرة آلاف إلى الثمانية آلاف، تمدون إخوانكم من أهل الشام، فإنهم قد جاشت عليهم الروم، وفي ذلك الأجر العظيم، والفضل المبين، فانتدبوا رحمكم الله مع سلمان بن ربيعة الباهلي، فانتدب الناس، فلم يمض ثالثة حتى خرج ثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة، فمضوا حتى دخلوا أهل الشام إلى أرض الروم، وعلى جند أهل الشام حبيب بن مسلمة بن خالد الفهري، وعلى جند أهل الكوفة سلمان بن ربيعة الباهلي، فشنوا الغارات على أرض الروم، فأصاب الناس ما شاءوا من سبي، وملأوا أيديهم من المغنم، وافتتحوا بها حصوناً كثيرة[4]، وفي جهاد الوليد وغزوه يقول بعض الرواة: رأيت الشعبي جلس إلى

(1) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص(224).
(2) أجلبت: تجمعت للحرب.
(3) تاريخ الطبري (5/ 247).
(4) المصدر نفسه.

محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة، فذكر محمد غزوة مسلمة بن عبد الملك، فقال الشعبي: كيف لو أدركتم الوليد وغزوه وإمارته؟ إن كان ليغزو فينتهي إلى كذا وكذا ما قصر ولا انتقض عليه أحد حتى عُزل من عمله[1].

ثالثاً: غزو سعيد بن العاص طبرستان 30هـ:

غزا سعيد بن العاص من الكوفة سنة ثلاثين يريد خراسان، ومعه حذيفة بن اليمان وناس من أصحاب رسول الله ﷺ، ومعه الحسن والحسين وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير، وخرج عبد الله بن عامر من البصرة يريد خراسان، فسبق سعيداً ونزل أبرشهر، وبلغ نزوله أبَرشهر سعيداً. فنزل سعيد قوميس، وهي صلح، صالحهم حذيفة بعد نهاوند، فأتى جرجان، فصالحوه على مائتي ألف، ثم أتى طَمِيسة، وهي كلها من طبرستان جرجان، وهي مدينة على ساحل البحر، وهي في تخوم جرجان، فقاتله أهلها حتى صلى صلاة الخوف، فقال لحذيفة: كيف صلى رسول الله ﷺ؟ فأخبره، فصلى بها سعيد صلاة الخوف، وهم يقتتلون، وضرب يومئذ سعيد رجلاً من المشركين على حبل عاتقه، فخرج السيف من تحت مرفقه، وحاصرهم، فسألوا الأمان، فأعطاهم على ألا يقتل منهم رجلاً واحداً، ففتحوا الحصن، فقتلهم جميعاً إلا رجلاً واحداً، وحوى ما كان في الحصن، فأصاب رجل من بني نهد سفطاً عليه قفلٌ، فظن فيه جواهر، وبلغ سعيداً، فبعث إلى النهدي، فأتاه بالسفط، فكسروا قفله، فوجدوا فيه سفطاً، ففتحوه، فإذا فيه خرقة صفراء وفيها: كُميت وورد[2]، وعندما قفل سعيد إلى الكوفة، مدحه كعب بن جعيل فقال:

فنِعْمَ الفتى إذ جالَ جيلانَ دونَه ... وإذْ هبَطوا من دَستَبَى ثم أبهرَا

تعلَّمْ سعيدَ الخيرِ أنّ مطيَّتي ... إذا هبطَتْ أشفقتُ منْ أن تُعَقَّرا

كأنَّكَ يومَ الشّعبِ ليثُ خفيّة ... تحرَّدَ من ليثِ العرينِ وأصْحَرا

تَسوسُ الذي ما ساسَ قبلكَ واحدٌ ... ثمانينَ ألفاً دارعينَ وحُسَّرا[3]

(1) عثمان بن عفان، صادق عرجون، ص(201).

(2) تاريخ الطبري (5/ 270).

(3) المصدر نفسه، (5/ 271).

رابعاً: هروب ملك الفرس (يزدجرد) إلى خراسان:

قدم ابن عامر البصرة، ثم خرج إلى فارس فافتتحها، وهرب يزدجرد من وجُوز ـ وهي أردشير خُرَّة ـ في سنة ثلاثين، فوجَّه ابن عامر في أثره مجاشع بن مسعود السُّلميّ، فاتبعه إلى كرْمان، فنزل مجاشع السّيَرجان بالعسكر، وهرب يزدجرد إلى خراسان[1].

خامساً: مقتل يزدجرد ملك الفرس 31هـ:

اختلف في سبب ذكر قتله كيف كان، قال ابن إسحاق: هرب يزدجرد من كَرمان في جماعة يسيرة إلى مرو، فسأل من بعض أهلها مالاً فمنعوه وخافوه على أنفسهم، فبعثوا إلى الترك يستفزونهم عليه، فأتوه فقتلوا أصحابه، وهرب هو حتى أتى منزل رجل ينقِّر الأرحاء[2]، على شط المَرْغاب[3]، فأوى إليه ليلاً، فلما نام قتله[4]، وجاء في رواية عند الطبري: . . . بل سار يزدجرد من كرمان قبل ورود العرب إياها، فأخذ على طريق الطَّبسَين وقُهستان، حتى شارف مرو في زهاء أربعة آلاف رجل، ليجمع من أهل خراسان جموعاً، ويكرّ إلى العرب ويقاتلهم، فتلقّاه قائدان متباغضان متحاسدان كانا بمرو، يقال لأحدهما: براز والآخر: سنجان، ومنحاه الطاعة، وأقام بمرو، وخص براز فحسده ذلك سنجان، وجعل براز يبغي سنجان الغوائل، ويوغل صدر يزدجرد عليه، وسعى سنجان حتى عزم على قتله، وفشا ما كان عزم عليه من ذلك، فنذِر[5] سنجان، وأخذ حذره، وجمع جمعاً كنحو أصحاب براز، ومن كان مع يزدجرد من الجند، وتوجه نحو القصر الذي كان يزدجرد نازله، وبلغ ذلك براز، فنكص عن سنجان لكثرة جموعه، ورَغَّبَ جمع سنجان يزدجرد وأخافه، فخرج من قصره متنكراً، ومضى على وجهه راجلاً لينجو بنفسه، فمشى نحواً من فرسخين حتى وقع إلى رحاً، فدخل بيت الرحا، فجلس فيه كالاً[6]، لغباً[7]، فرآه صاحب الرحا ذا هيئة وطرة وبزّة كريمة، ففرش له، فجلس وأتاه

(1) تاريخ الطبري، (5/ 288).

(2) الأرحاء: جمع رحا وهي: الطاحون.

(3) المرغاب: نهر بمرو.

(4) تاريخ الطبري (5/ 295).

(5) نذر: علم.

(6) كالاً: متعباً.

(7) لغباً: متعباً أشد التعب.

بطعام فطعم، ومكث عنده يوماً وليلة، فسأله صاحب الرحا أن يأمر له بشيء، فبذل له منطقه مكللة بجوهر كانت عليه، فأبى صاحب الرحا أن يقبلها، وقال: إنما كان يرضيني من هذه المنطقة أربعة دراهم كنت أطعم بها وأشرب، فأخبره أنه لا ورق معه، فتملقه صاحب الرحا، حتى إذا غفا قام إليه بفأس له فضرب بها هامته فقتله، واحتز رأسه، وأخذ ما كان عليه من ثياب ومنطقة، وألقى جيفته في النهر الذي كان تدور بمائه رحاه، وبقر بطنه، وأدخل فيه أصولاً من أصول طرفاء[1]، كانت نابتة في ذلك النهر لتجس جثته في الموضع الذي ألقاه فيه، فلا يسفل فيعرف ويطلب قاتله وما أخذ من سلبه، وهرب على وجهه[2]، وجاء في رواية: . . . وجاءت الترك في طلبه فوجدوه قد قتله وأخذ حاصله، فقتلوا ذلك الرجل وأهل بيته، وأخذوا ما كان مع كسرى، ووضعوا كسرى في تابوت وحملوه إلى إصطخر[3].

وقد ذكر الطبري حديثين مطولين، وأحدهما أطول من الآخر يتضمن ضروباً من الاضطرابات تقلب فيها، وأنواعاً من الدوائر دارت عليه حتى كانت منيته آخرها[4]، وقد قال يزدجرد لمن أراد قتله في بعض الروايات: ألا يقتلوه وقال لهم: ويحكم، إنا نجد في كتبنا أن من اجترأ على قتل الملوك عاقبه الله بالحريق في الدنيا، مع ما هو قادم عليه، فلا تقتلوني وائتوا بي إلى الدهقان، أو سرحوني إلى العرب، فإنهم يستحيون مثلي من الملوك[5]. وكان مُلْك يزدجرد عشرين سنة، منها أربع سنين في دَعَة، وباقي ذلك هارباً من بلد إلى آخر، خوفاً من الإسلام وأهله، وهو آخر ملوك الفرس في الدنيا على الإطلاق[6]، فسبحان ذي العظمة والملكوت، الملك الحق الحي الدائم الذي لا يموت، لا إلٰه إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون[7]، وقد قال رسول الله ﷺ في ملوك الفرس والروم: «**إذا هلك قَيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى**

(1) طرفاء: شجر.
(2) خلافة عثمان، للسّلمي، ص(57).
(3) تاريخ الطبري (5/ 297).
(4) الاكتفاء، للكلاعي (4/ 417).
(5) المصدر نفسه، (4/ 418)؛ تاريخ الطبري (5/ 302).
(6) خلافة عثمان، د. محمد السلمي، ص(57).
(7) الاكتفاء للكلاعي (4/ 419).

فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»[1].

سادساً: تعاطف النصارى مع يزدجرد بعد مقتله:

بلغ قتل يزدجرد رجلاً من أهل الأهواز كان مُطراناً على مرو، يقال له: إيلياء، فجمع مَن كان قبله من النصارى، وقال لهم: إن ملك الفرس قد قتل، وهو ابن شهريار بن كسرى، وإنما شهريار ولد شيرين المؤمنة التي قد عرفتم حقها وإحسانها إلى أهل ملتها من غير وجه، ولهذا الملك عنصر في النصرانية مع ما نال النصارى في ملك جده كسرى من الشرف، وقبل ذلك في مملكة ملوك من أسلافه من الخير، حتى بنى لهم بعض البِيَع، وسدد لهم بعض ملتهم، فينبغي لنا أن نحزن لقتل هذا الملك من كرامته بقدر إحسان أسلافه وجدته شيرين إلى النصارى، وقد رأيت أن أبني له ناووساً[2]، وأحمل جثته في كرامة حتى أواريها فيه، فقال النصارى: أمرنا لأمرك أيها المطران تبع، ونحن لك على رأيك هذا مواطئون. فأمر المطران فبنى في جوف بستان المطارنة بمرو ناووساً، ومضى بنفسه ومعه نصارى مرو حتى استخرج جثة يزدجرد من النهر وكفنها، وجعلها في تابوت، وحمله مَن كان معه من النصارى على عواتقهم حتى أتوا به الناووس الذي أمر ببنائه له وواروه فيه، وردموا بابه[3].

سابعاً: فتوحات عبد الله بن عامر 31هـ:

في هذه السنة 31هـ شخص عبد الله بن عامر إلى خراسان ففتح أبرشهر، وطوس، وبيورد، ونسا، حتى بلغ سَرَخس، وصالح فيها أهل مرو، وقد جاء في رواية عن السَّكن بن قتادة العُرَيْنِيّ قال: فتح ابن عامر فارس ورجع إلى البصرة، واستعمل على إصطخر شريك ابن الأعور الحارثي، فبنى شريك مسجد إصطخر، فدخل على ابن عامر رجل من بني تميم كنا نقول: إنه الأحنف ـ ويقال: أوس بن جابر الجُشَمِيّ جُشَم تميم ـ فقال له: إن عدوك منك هارب، وهو لك هائب، والبلاد واسعة، فسر فإن الله ناصرك، ومعز دينه، فتجهز ابن عامر، وأمر الناس بالجهاز للمسير، واستخلف على البصرة زياداً، وسار إلى كرمان، ثم أخذ إلى خراسان، فقومٌ يقولون: أخذ طريق أصبهان، ثم سار إلى

(1) مسلم في الفتن رقم (2918، 2919).

(2) الناووس: حجر منقور تجعل فيه جثة الميت.

(3) تاريخ الطبري (5/304).

خراسان، واستعمل على كرمان مجاشع بن مسعود السُّلميّ، وأخذ ابن عامر على مفازة وابَر، وهي ثمانون فرسخاً، ثم سار إلى الطَّبَسَين يريد أبْرَشهر، وهي مدينة نيسابور، وعلى مقدمته الأحنف بن قيس، فأخذ إلى قُهِستان، وخرج إلى أبرشهر فلقيه الهباطلة، وهم أهل هَراة، فقاتلهم الأحنف فهزمهم، ثم أتى ابن عامر نيسابور[1].

وجاء في رواية: نزل ابن عامر على أبرشهر فغلب على نصفها عنوة، وكان النصف الآخر في يد كنارَى، ونصف نسا وطوس، فلم يقدر ابن عامر أن يجوز إلى مرو، فصالح كنارَى، فأعطاه ابنه أبا الصلت بن كنارى وابن أخيه سليماً رهناً، ووجه عبد الله بن خازم إلى هراة وحاتم بن النعمان إلى مرو، وأخذ ابن عامر ابني كنارى، فصارا إلى النعمان بن الأفقم النصري فأعتقهما[2]، وفتح ابن عامر ما حول مدينة أبرشهر، كطوس وبيوَرْد، ونَسا وحُمران، حتى انتهى إلى سَرخَس وسرح ابن عامر الأسود بن كلثوم العدوي ـ عدي الرَّباب ـ إلى بَيْهق، وهو من أبرشهر، بينهما وبين أبرشهر ستة عشر فرسخاً، ففتحها وقُتل الأسود بن كلثوم؛ وكان فاضلاً في دينه، وكان من أصحاب عامر بن عبد الله العنبري، وكان ابن عامر يقول بعدما أخرج من البصرة: ما آسى من العراق على شيء إلا على ظمأ الهواجر، وتجاوب المؤذنين، وإخوان مثل الأسود بن كلثوم[3]. واستطاع ابن عامر أن يتغلب على نيسابور، وخرج إلى سرخس، فأرسل إلى أهل مرو يطلبون الصلح، فبعث إليهم ابن عامر حاتم بن النعمان الباهلي، فصالح براز مرزبان مرو على ألفي ألفٍ ومائتي ألف[4].

ثامناً: غزو الباب وبَلنْجَر سنة اثنتين وثلاثين:

كتب عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى سعيد بن العاص: أن أغزِ سلمان الباب، وكتب إلى عبد الرحمن بن ربيعة وهو على الباب: إن الرعية قد أبطر كثيراً منهم البطنة، فقصِّر، ولا تقتحم بالمسلمين، فإني خاشٍ أن يُبتلوا، فلم يزجر ذلك عبد الرحمن عن غايته، وكان لا يقصر عن بلنجر، فغزا سنة تسع من إمارة عثمان حتى إذا بلغ بلنجر، حصروها ونصبوا

(1) تاريخ الطبري (5/ 305).
(2) المصدر نفسه (5/ 306).
(3) المصدر نفسه (5/ 307).
(4) المصدر نفسه.

عليها المجانيق والعرادات[1]، فجعل لا يدنو منها أحد إلا أعنتوه أو قتلوه، فأسرعوا في الناس[2]. ثم إن الترك اتّعدوا يوماً، فخرج أهل بلنجر، وتوافت إليهم الترك فاقتتلوا، فأصيب عبد الرحمن بن ربيعة ـ وكان يقال له ذو النور ـ وانهزم المسلمون فتفرقوا، فأما مَن أخذ طريق سلمان بن ربيعة فحماه حتى خرج من الباب، وأما مَن أخذ طريق الخزر وبلادها، فإنه خرج على جيلان وجُرجان وفيهم سلمان الفارسي وأبو هريرة، وأخذ القوم جسد عبد الرحمن فجعلوه في سَفَط، فبقي في أيديهم، فهم يستقون به إلى اليوم ويستنصرون به[3].

1 ـ مقتل يزيد بن معاوية:

غزا أهل الكوفة بلنجر سنين من إمارة عثمان لم تئِم[4] فيهن امرأة، ولم ييتم فيهن صبيّ من قبل، حتى كان سنة تسع ـ من خلافة عثمان ـ قبل المزاحفة بيومين، رأى يزيد بن معاوية أن غزالاً جيء به إلى خبائه، لم ير غزالاً أحسن منه حتى لف في ملحفته، ثم أتي به قبر عليه أربعة نفر لم ير قبراً أشد استواء منه ولا أحسن منه حتى دفن فيه، فلما تفادى الناس على الترك رمى يزيد بحجر، فهشم رأسه، فكأنما زيّن ثوبه بالدماء زينة، وليس بتلطخ، فكان ذلك الغزال الذي رأى[5]، وكان يزيد رقيقاً جميلاً رحمه الله، وبلغ ذلك عثمان، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! انتكث أهل الكوفة، اللهم تب عليهم وأقبل بهم[6].

2 ـ ما أحسن حمرة الدماء في بياضك:

كان عمرو بن عتبة يقول لقباء عليه أبيض: ما أحسن حمرة الدماء في بياضك، فأصيب عند الالتحام مع العدو بجراحة، فرأى قباءه كما اشتهى وقتل[7].

---

(1) العرادة: آلة حربية كالمنجنيق ترمي بالحجارة المرمى البعيد لدك الحصون.
(2) تاريخ الطبري (5/ 308).
(3) تاريخ الطبري (5/ 309).
(4) لم تئم امرأة: لم تفقد زوجها.
(5) تاريخ الطبري (5/ 310) أي في نومه.
(6) المصدر نفسه (5/ 311).
(7) المصدر نفسه (5/ 310).

3 ـ ما أحسن لمع الدماء على الثياب:

كان القُرَشَع يقول: ما أحسن لمع الدماء على الثياب، فلما كان يوم المزاحفة قاتل القرشَع حتى خُرِّق بالحراب، فكأنما كان قباؤه ثوباً أرضه بيضاء ووشيه أحمر، وما زال الناس ثبوتاً حتى أصيب، وكانت هزيمة الناس مع مقتله[1].

4 ـ إن هؤلاء يموتون كما تموتون:

كان الترك ـ في تلك المعركة ـ قد اختفوا في الغياض[2]، وكانوا قد خافوا المسلمين، واعتقدوا أن السلاح لا يعمل فيهم! واتفق أن تركياً اختفى في غيضة ورشق مسلماً بسهم فقتله، فنادى في قومه: إن هؤلاء يموتون كما تموتون، فلمَ تخافوهم؟ فاجترأ الترك على المسلمين وخرجوا عليهم من مكامنهم وأوقعوا بهم، واشتد القتال، فثبت عبد الرحمن حتى استشهد[3].

5 ـ صبراً آل سلمان:

جاء في رواية أخرى: حين استشهد عبد الرحمن، أخذ الراية أخوه سلمان بن ربيعة الباهلي وقتل بها، ونادى منادٍ: (صبراً آل سلمان!) فقال سلمان: أو ترى جَزَعاً!! وخرج سلمان ومعه أبو هريرة الدوسي على جيْلان[4]، فقطعوها إلى جُرجان[5] منسحباً من معركة خاسرة[6]، بعد أن دفن أخاه عبد الرحمن بنواحي بلنجر[7]، وبهذا الانسحاب أنقذ سلمان بقية باقية من جيش أخيه[8].

وقد رجح هذه الرواية محمود شيت خطاب وقال: إن الانسحاب أشبه بقتال

---

(1) تاريخ الطبري (5/ 310).

(2) الغياض: جمع غيضة، وهي المواضع التي يكثر فيه الشجر ويلتف.

(3) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، محمود شيت خطاب، ص(151).

(4) جيلان: اسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان.

(5) جرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان.

(6) تاريخ الطبري (5/ 309)؛ قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص(151).

(7) معجم البلدان (2/ 278).

(8) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص(151).

المسلمين يومئذ، وذلك في حالة اشتداد الضغط عليهم من العدو وتكبدهم خسائر فادحة بالأرواح، والانسحاب هو من أجل الانحياز إلى فئة من المسلمين، ليعيدوا الكرة ثانية على عدوهم، وقد جاء سلمان بن ربيعة مدداً لعبد الرحمن بأمر عثمان بن عفان، فليس من المعقول أن يبقى ومدده في (الباب)، وليس من المعقول أن يتركه أخوه عبد الرحمن هناك وهو يخوض معركة قاسية شرسة، يكون فيها القائد بأمس الحاجة إلى الجندي الواحد، فكيف يترك عبد الرحمن جيشاً كاملاً على رأسه أخوه دون أن يستفيد منه في المعركة؟

إن المؤرخين القدامى كانوا يستعملون تعبيراً: (الهزيمة)، وهم يريدون بها تعبير الانسحاب، ذلك لأن أكثرهم مدنيون لا يفرِّقون بين هذين التعبيرين: (الهزيمة) ترك ساحة القتال بدون نظام ولا قيادة فهي كارثة، و(الانسحاب) ترك ساحة القتال وفق خُطة مرسومة بقيادة واحدة، فهو ـ أي الانسحاب ـ صفحة من صفحات القتال، الهدف منه إعادة الكرة على العدو بعد إكمال متطلبات المعركة عَدداً وعُدداً، وعسى ألا يقع المؤرخون المحدثون في مثل هذا الخطأ في التعبير، فلا يفرِّقون بين (الهزيمة)، و(الانسحاب)، لأن الفرق بين التعبيرين شاسع بعيد[1].

تاسعاً: أول اختلاف وقع بين أهل الكوفة وأهل الشام 32هـ:

لما قتل عبد الرحمن بن ربيعة، استعمل سعيد بن العاص على ذلك الفرع سلمان بن ربيعة، وأمدهم عثمان بأهل الشام عليهم حبيب بن مسلمة، فتنازع حبيب وسلمان على الإمرة، وقال أهل الشام: لقد هممنا بضرب سلمان، فقال في ذلك الناس: إذاً والله نضرب حبيباً ونحبه، وإن أبيتم كثرت القتلى فيكم وفينا حتى قال في ذلك رجل من أهل الكوفة وهو أوس بن مغراء:

إن تضربوا سلمانَ نضربْ حبيبَكُم ... وإن ترحلوا نحوَ ابنِ عفانَ نَرحَلُ
وإن تُقيطوا فالثغرُ ثغرُ أميرِنا ... وهذا أميرٌ في الكتائبِ مُقبلُ
ونحنُ ولاةُ الثغرِ كنا حماتَهُ ... لياليَ نرمي كلَّ ثغرٍ ونُنكِلُ[2]

(1) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص(152، 153).

(2) تاريخ الطبري (5/ 311)؛ البداية والنهاية (7/ 166).

وتغلب المسلمون على الفتنة بتوفيق الله، ثم بوجود أمثال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه الذي كان على الغزو بأهل الكوفة، فقد غزا ذلك الثغر ثلاث غزوات، فقتل عثمان رضي الله عنه في الثالثة[1].

عاشراً: فتوحات ابن عامر سنة اثنتين وثلاثين:

وفيها فتح ابن عامر مرو الروذ، والطالقان، والفارياب، والجَوزجان، وطُخارستان، فقد بعث ابن عامر الأحنف بن قيس إلى مرو روذ، فحصر أهلها، فخرجوا إليهم فقاتلوهم، فهزمهم المسلمون حتى اضطروهم إلى حصنهم، فأشرفوا عليه، وقالوا: يا معشر العرب، ما كنتم عندنا كما نرى، ولو علمنا أنكم كما نرى لكانت لنا ولكم حال غير هذه، فأمهلونا ننظر يومنا، وارجعوا إلى عسكركم، فرجع الأحنف، فلما أصبح غاداهم وقد أعدوا له الحرب، فخرج رجل من العجم معه كتاب من المدينة، فقال: إني رسول فأمِّنوني، فأمنوه، فإذا رسول من مرزبان مرو ابن أخيه وترجمانه، وإذا كتاب المرزبان إلى الأحنف، فقرأ الكتاب، قال: فإذا هو إلى أمير الجيش، إنا نحمد الله الذي بيده الدول، يغيِّر ما شاء من الملك، ويرفع مَن شاء بعد الذلة، ويضع مَن شاء بعد الرفعة: إنه دعاني إلى مصالحتك وموادعتك ما كان من إسلام جدي، وما كان رأى من صاحبكم من الكرامة والمنزلة، فمرحباً بكم وأبشروا، وأنا أدعوكم إلى الصلح فيما بينكم وبيننا، على أن أؤدي إليكم خراجاً ستين ألف درهم، وأن تُقرُّوا بيدي ما كان ملك الملوك كسرى أقطع جد أبي حيث قتل الحية التي أكلت الناس، وقطعت السبيل من الأرضين والقرى بما فيها من الرجال، ولا تأخذوا من أحد من أهل بيتي شيئاً من الخراج، ولا تخرج المرزبة[2] من أهل بيتي إلى غيركم، فإن جعلت ذلك لي خرجتُ إليك، وقد بعثت إليك ابن أخي ماهَك ليستوثق منك. فكتب إليه الأحنف:

بسم الله الرحمن الرحيم، من صخر بن قيس أمير الجيش إلى باذان مرزبان مرو روذ ومَن معه من الأساورة والأعاجم، سلام على مَن اتبع الهدى، وآمن واتقى. أما بعد، فإن ابن أخيك ماهك قدم عليّ، فنصح لك جهده، وأبلغ عنك، وقد عرضت ذلك على

(1) تاريخ الطبري (5/ 311).

(2) المرزبة: الرئاسة عند العجم. والمرزبان: الرئيس المقدم فيهم.

مَن معي من المسلمين، وأنا وهم فيما عليك سواء، وقد أجبناك إلى ما سألت، وعرضت على أن تؤدي عن أكرَتِك[1] وفلاحيك والأرضين التي ذكرت أن كسرى الظالم لنفسه أقطع جد أبيك لما كان من قتله الحية التي أفسدت الأرض وقطعت السبيل، والأرض لله ولرسوله يورثها مَن يشاء من عباده، وإن عليك نصرة المسلمين وقتال عدوهم بمَن معك من الأساورة، إن أحب المسلمون ذلك وأرادوه، وإن لك على ذلك نصرة المسلمين على مَن يقاتل مَنْ وراءك من أهل ملتك، جارٍ لك بذلك مني كتاب يكون لك بعدي، ولا خراج عليك ولا على أحد من أهل بيتك من ذوي الأرحام، وإن أنت أسلمت واتبعت الرسول كان لك من المسلمين العطاء والمنزلة والرزق وأنت أخوهم، ولك بذلك ذمتي وذمة أبي وذمم المسلمين وذمم آبائهم.

شهد على ما في هذا الكتاب جزءُ بن معاوية ـ أو معاوية بن جزء السعدي ـ وحمزة بن الهرماس، وحُميد بن الخيار المازنيَّان، وعياض بن ورقاء الأسيدي. وكتبه كيسان مولى بني ثعلبة يوم الأحد من شهر المحرم، وختم أمير الجيش الأحنف بن قيس، ونقش خاتم الأحنف: نعبد الله[2].

حادي عشر: القتال بين جيش الأحنف وأهل طخارستان والجوزجان والطالقان والفاريان:

صالح ابن عامر أهل مرو، وبعث الأحنف في أربعة آلاف إلى طخارستان، فأقبل حتى نزل موضع قصر الأحنف من مرو روذ، وجمع له أهل طُخارستان، وأهل الجوزجان والطالقان والفاريان، فكانوا ثلاثة زحوف، ثلاثين ألفاً، وأتى الأحنف خبرهم وما جمعوا له، فاستشار الناس فاختلفوا، فبين قائل: نرجع إلى مرو، وقائل: نرجع إلى أبرشهر، وقائل: نقيم نستمد، وقائل: نلقاهم فنناجزهم؛ فلما أمسى الأحنف خرج يمشي في العسكر، ويستمع حديث الناس، فمر بأهل خباء ورجل يوقد تحت خزيرة[3]، أو يعجن، وهم يتحدثون ويذكرون العدو، فقال بعضهم: الرأي للأمير أن يسير إذا أصبح، حتى يلقى القوم حيث لقيهم ـ فإنه أرعب لهم ـ فيناجزهم، فقال صاحب الخزيرة أو العجين:

(1) الأكرة: جميع أكّار: الحراث.
(2) تاريخ الطبري (5/ 316).
(3) الخزيرة: الحساء من الدسم والدقيق.

إن فعل ذلك فقد أخطأ وأخطأتم، أتأمرونه أن يلقى حد العدو مصحراً في بلادهم، فيلقى جمعاً كثيراً بعدد قليل، فإن جالوا جولة اصطلمونا[1]؛ ولكن الرأي له أن ينزل بين المرغاب والجبل، فيجعل المرغاب عن يمينه والجبل عن يساره، فلا يلقاه من عدوه وإن كثروا إلا عدد أصحابه، فرجع الأحنف وقد اعتقد ما قال، فضرب عسكره، وأقام فأرسل إليه أهل مرو يعرضون عليه أن يقاتلوا معه، فقال: إني أكره أن أستنصر بالمشركين، فأقيموا على ما أعطيناكم، وجعلنا بيننا وبينكم، فإن ظفرنا فنحن على ما جعلنا لكم، وإن ظفروا بنا وقاتلوكم فقاتلوا عن أنفسكم؛ فوافق المسلمين صلاة العصر، فعاجلهم المشركون فناهضوهم، فقاتلوهم وصبر الفريقان حتى أمسوا، والأحنف يتمثل بشعر ابن جُؤيّة الأعرجي:

أحقُّ مَن لم يكره المنية ... حَزوَّرٌ[2] ليس له ذرية[3]

وجاء في رواية... فقاتلهم حتى ذهب عامة الليل، ثم هزمهم الله، فقتلهم المسلمون حتى انتهوا إلى رَسْكن ـ وهي على اثني عشر فرسخاً من قصر الأحنف ـ وكان مرزبان مرو روذ قد تربص بحمل ما كانوا صالحوه عليه، لينظر ما يكون من أمرهم، فلما ظفر الأحنف سرح رجلين إلى المرزبان، وأمرهما ألا يكلماه حتى يقبضاه، ففعلا؛ فعلم أنهم لم يصنعوا ذلك به إلا وقد ظفروا، فحمل ما كان عليه[4]، وبعث الأحنف الأقرع بن حابس في جريدة خيل[5]، إلى الجوزجان حيث بقية كانت بقيت من الزحوف الذين هزمهم الأحنف، فقاتلهم، فجال المسلمون جولة، فقتل فرسان من فرسانهم، ثم أظفر الله المسلمين بهم فهزموهم وقتلوهم، فقال كُثير النهشلي:

سقى مزنُ السحابِ إذا استهلَّت[6] ... مصارعَ فتيةٍ بالجُوزَجانِ

إلى القصرينِ من رُستاقِ خُوطٍ ... أقادهُمُ هناكَ الأقرعانِ[7]

(1) اصطلم: اقتلعه من أصله.
(2) الحزوَّر: الغلام القوي.
(3) تاريخ الطبري (5/ 317).
(4) تاريخ الطبري (5/ 317).
(5) جريدة الخيل: كتيبة الخيل التي لا رجالة فيها.
(6) استهلت السحابة: أمطرت واشتد مطرها.
(7) تاريخ الطبري (5/ 318).

ثاني عشر: صلح الأحنف مع أهل بلخ 32هـ:

سار الأحنف من مرو الروذ إلى بلخ فحاصرهم، فصالحه أهلها على أربعمائة ألف، فرضي منهم بذلك، واستعمل ابن عمه، وهو أُسيد بن المتشمس ليأخذ منهم ما صالحوه عليه، ومضى إلى خوارِزْم، فأقام حتى هجم عليه الشتاء، فقال لأصحابه: ما تشاءون؟ فقالوا: قد قال عمر بن معديكرب:

إذا لـمْ تـسـتـطـعْ أمـراً فـدعْهُ وجـاوِزْهُ إلـى مـا تـسـتـطـيـعُ

فأمر الأحنف بالرحيل، ثم انصرف إلى بلخ، وقد قبض ابن عمه ما صالحهم عليه، وكان وافق وهو يجيبهم المهرجان، فأهدوا إليه هدايا من آنية الذهب والفضة ودنانير ودراهم ومتاع وثياب، فقال ابن عم الأحنف: هذا ما صالحناكم عليه؟ قالوا: لا، ولكن هذا شيء نصنعه في هذا اليوم بمن ولينا نستعطفه به، قال: وما هذا اليوم؟ قالوا: المهرجان، قال: ما أدري ما هذا؟ وإني لأكره أن أرده، ولعله من حقي، ولكن أقبضه وأعزله حتى أنظر فيه، فقبضه، وقدم الأحنف فأخبره، فسألهم عنه، فقالوا له مثل ما قالوا لابن عمه، فقال: آتي به الأمير، فحمله إلى ابن عامر، فأخبره عنه، فقال: اقبضه يا أبا بحر، فهو لك. قال: لا حاجة لي فيه، فقال ابن عامر: ضمه إليك يا مسمار، فضمَّه القرشي وكان مضَمَّا[1].

ثالث عشر: لأجعلن شكري لله على ذلك أن أخرج مُحْرِماً معتمراً من موقفي هذا:

ولما رجع الأحنف إلى ابن عامر قال الناس لابن عامر: ما فُتِحَ على أحد ما قد فُتح عليك، فارس وكرمان وسجستان وعامة خراسان! قال: لا جرم، لأجعلن شكري لله على ذلك أن أخرج مُحرماً معتمراً من موقفي هذا، فأحرم بعمرة من نيسابور، فلما قدم على عثمان لامه على إحرامه من خراسان، وقال: ليتك تضبط ذلك من الوقت الذي يحرم منه الناس[2].

---

(1) تاريخ الطبري (5/ 319).

(2) البداية والنهاية (7/ 167)؛ تاريخ الطبري (5/ 319).

رابع عشر: هزيمة قارِن في خراسان:

لما رجع ابن عامر من الغزو، استخلف قيس بن الهيثم على خراسان، فأقبل قارن في جمع من الترك، أربعين ألفاً، فالتقاه عبد الله بن خازم السُّلمي في أربعة آلاف، وجعل لهم مقدمة ستمائة رجل، وأمر كُلاً منهم أن يجعل على رأس رُمحه ناراً، وأقبلوا إليهم في وسط الليل فبيّتوهم فثاروا إليهم، فناوشتهم المقدمة، فاشتغلوا بهم، وأقبل عبد الله بن خازم بمن معه من المسلمين فأحاطوا بهم، فولى المشركون مدبرين، واتبعهم المسلمون يقتلون من شاءوا، وقُتلَ قارن فيمن قُتل، وغنموا سبياً كثيراً، وأموالاً جزيلة، ثم بعث عبد الله بن خازم بالفتح إلى ابن عامر، فرضي عنه، وأقره على خراسان، وذلك أنه كان قد احتال على الوالي السابق قيس بن الهيثم السلمي حتى أخرجه من خراسان، ثم تولى حرب قارن، فلما هزمه وغنم عسكره، رضي عليه ابن عامر، وأقره على ولاية خراسان[1].

وهكذا تصدّى الخليفة الراشد عثمان لحركات التمرد في المشرق وواصل فتوحاته، ولم تفتّ تلك الثورات في عضد المسلمين، ولم تنل من عزم الخليفة الذي كان كفؤاً لها، حيث واجهها بالعزم والرأي، والسرعة في تصريف الأمور، وتسيير النجدات، وإسناد كل عمل إلى مَن يحسنه، كما يظهر من تتبع الأحداث في تاريخ الطبري، وابن كثير والكلاعي، بما لا يدع شكاً في أن اختيار عثمان للقادة الذين قاموا بهذه الانتصارات وتطويق هذه القلاقل كان اختياراً موفقاً، مع العلم أن أعباء الجهاد كانت أشق وأكبر وأحوج إلى التوجيه النَّاجز، لامتداد خطوط القتال، وتعدد الفتن، وتباعد المسافات بين البلدان، إن علاج تلك المعضلات التي فاجأت عثمان رضي الله عنه بعد ولايته، وتصدَّى لها بالعزم والسداد والسرعة والحيطة والأناة لدليل على قوة شخصيته ونفاذ بصيرته، وكان له بعد ذلك أكبر الفضل ـ بعد الله ـ في تثبيت مهابة الدولة بعدما أصابها من الوهن والتخلخل عند مقتل عمر رضي الله عنه، وكانت ثمرات تلك الوقفات الرائعة:

أ ـ إخضاع المتمردين وإعادة سلطة المسلمين عليهم.

ب ـ ازدياد الفتوحات الإسلامية إلى ما وراء البلاد المتمردة منعاً لارتداد الهاربين

(1) البداية والنهاية (7/ 167).

إليها وانبعاث الفتن والدسائس من قبلها.

ج ـ اتخاذ المسلمين قواعد ثابتة يرابط فيها المسلمون لحماية البلاد التي خضعت للمسلمين.

فهل كانت تلك الفتوحات العظيمة والسياسة الحكيمة والضبط للأقاليم يمكن أن تتحقق لو كان عثمان رضي الله عنه ضعيفاً غير قادر على اتخاذ القرار[1]، كما يزعم مَن وقع وتورط في روايات الرفض والاستشراق ومن سار على نهجهم السقيم.

خامس عشر: من قادة فتح بلاد المشرق في عهد عثمان: الأحنف بن قيس:

كانت الفتوحات في عهد عثمان رضي الله عنه عظيمة، فرأيت من المناسب أن نسلط الأضواء على بعض قادة الفتوح في عهد عثمان، وبما أنني تحدثت عن فتوح العشرق، فلابد إذاً من إعطاء صورة مشرقة عن أحد قادة تلك الفتوح، فاخترت: الأحنف بن قيس.

1 ـ نسبه وأهله:

هو أبو بحر الأحنف بن قيس بن معاوية بن حُصَين بن حَفص بن عبادة التميمي[2]، واسمه الضحاك وقيل: صخر[3]، وأمه حبَّة بنت عمرو بن قُرْط الباهلية[4]، كان أخوها الأخطل بن قُرط من الشجعان، وقد قال الأحنف مفاخراً بخاله هذا: ومن له خال مثل خالي[5]؟

2 ـ حياته:

كان من سادات التابعين وأكابرهم، وسيداً مطاعاً في قومه[6]، وسيد أهل البصرة[7]، وكان موضع ثقة الناس جميعاً بمختلف طبقاتهم وأهوائهم وميولهم، وكان

(1) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 408، 409).
(2) جمهرة أنساب العرب، ص(217)؛ طبقات ابن سعد (7/ 95).
(3) قادة فتح السند وأفغانستان، محمود خطاب، ص(285).
(4) المصدر نفسه.
(5) جمهرة أنساب العرب، ص(212).
(6) قادة فتح السند وأفغانستان، ص(285).
(7) الإصابة (1/ 103)؛ أسد الغابة (1/ 55).

أحد الحكماء الدهاة العقلاء[1]، ذا دين وذكاء وفصاحة[2]، وكان سيد قومه موصوفاً بالعقل والدهاء والعلم والحلم، يضرب بحلمه المثل، وقد قال فيه الشاعر:

إذا الأبصارُ أبصرَتِ ابنَ قيسٍ ظللْنَ مهابةً منهُ خُشوعاً[3]

وقال عنه خالد بن صفوان: كان الأحنف يفر من الشرف، والشرف يتبعه[4]، وإليك بعض صفاته التي أثرت فيمن حوله:

أ ـ حلمه:

كان الأحنف حليماً يضرب بحلمه المثل، سئل عن الحلم: ما هو؟ فقال: الذل مع الصبر. وكان يقول إذا عجب الناس من حلمه: إني لأجد ما تجدون، ولكني صبور: ما تعلمت الحلم إلا من قيس بن عاصم المِنقَريّ[5]، لأنه قتل ابنُ أخ له بعض بنيه، فأتى القاتل مكتوفاً يقاد إليه، فقال: ذعرتم الفتى! ثم أقبل على الفتى فقال: بئس ما فعلت: نقصت عددك وأوهنت عضدك وأشمتّ عدوك وأسأت لقومك. خلوا سبيله واحملوا إلى أم المقتول ديته فإنها غريبة! ثم انصرف القاتل، وما حل قيس حبوته ولا تغير وجهه[6]، وقال رجل للأحنف: علِّمني الحلم يا أبا بحر، فقال: هو الذل يا ابن أخي، أفتصبر عليه؟! وقال: لست حليماً ولكنني أتحالم[7]. ومن أخبار حلمه، أن رجلاً شتمه فسكت عنه، وأعاد الرجل فسكت عنه، وأعاد فسكت عنه، فقال الرجل: والهفاه: ما يمنعه من أن يرد عليّ إلا هواني عنده[8]. وكان يقول: مَن لم يصبر على كلمة سمع كلمات، ورب غيظ قد تجرعته مخافة ما هو أشد منه[9]، ولكن حلمه كان حلم القوي القدير لا حلم العاجز الضعيف، فقد قاتل في بعض المواطن قتالاً شديداً، فقال له رجل: يا أبا بحر

(1) قادة فتح السند وأفغانستان، ص(304).
(2) المصدر نفسه، ص(304).
(3) المصدر نفسه.
(4) تهذيب ابن عساكر (7/ 13).
(5) الاستيعاب (3/ 1294).
(6) وفيات الأعيان (2/ 188).
(7) قادة فتح السند وأفغانستان، ص(306).
(8) المصدر نفسه.
(9) المصدر نفسه.

أين الحلم؟ فقال: عند الحي[1].

ب ـ عقلـه:

كان الأحنف عاقلاً راجحَ العقل، قال مرة: مَن كان فيه أربع خصال ساد قومه غير مدافع: مَن كان له دين يحجزه، وحسب يصونه، وعقل يرشده، وحياء يمنعه[2].

وقال: العقل خير قرين، والأدب خير ميراث، والتوفيق خير رفيق[3].

وقال: ما ذكرت أحداً بسوء بعد أن يقوم من عندي، وكان يقول إذا ذكر عنده رجل: دعوه يأكل رزقه ويأتي عليه أجله[4]. وشكا ابن أخيه وجع الضرس فقال: ذهبت عيني منذ ثلاثين سنة ما ذكرتها لأحد[5]. وقال: ما نازعني أحد فوقي إلاّ عرفت له قدره، ولا كان دوني إلا رفعت قدري عنه، ولا كان مثلي، إلا تفضلت عليه[6].

ج ـ علمـه:

كان عالماً ثقة مأموناً قليل الحديث، وقد روى عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأبي ذر الغفاري[7]، وروى عنه الحسن البصري وعُروة بن الزبير وغيرهما[8]، وقد كان من الفقهاء البارزين أيام معاوية.

د ـ حكمتـه:

كان حكيماً ينطق بالحكمة والموعظة الحسنة، سئل عن المروءة، فقال: التقى والاحتمال، ثم أطرق ساعة وقال:

وإذا جميل الوجه لم يأت الجميل فما جمالُهُ؟!

(1) المصدر نفسه، ص(306): يعني بها: تركته في الدار.
(2) المصدر نفسه، ص(306).
(3) تهذيب ابن عساكر (7/ 19).
(4) تهذيب ابن عساكر (7/ 21).
(5) المصدر نفسه (7/ 16).
(6) قادة فتح السند وأفغانستان، ص(307).
(7) طبقات ابن سعد (7/ 93).
(8) قادة فتح السند وأفغانستان، ص(308).

ما خيرُ أخلاقِ الفتى إلاّ تقاهُ واحتمالُهُ

وسئل عن المروءة فقال: العفة في الدين، والصبر على النوائب، وبرّ الوالدين، والحلم عند الغضب، والعفو عند المقدرة[1].

وقال: رأس الأدب آلة النطق، ولا خير في قول إلاّ بفعل، ولا منظر إلا بمَخبر، ولا في مال إلا بجود، ولا في صديق إلا بوفاء، ولا في فقه إلا بورع، ولا في صدقة إلا بنيَّة[2].

وقال: أحيي المعروف بإماتة ذكره[3]، وقال: كثرة الضحك تذهب الهيبة، وكثرة المزاح تذهب المروءة، ومَن لزم شيئاً عُرف به[4]، وقال: جنبوا مجلسنا الطعام والنساء، فإني لأبغض الرجل يكون وصافاً لفرجه وبطنه، وإن المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيه[5].

وقال: السؤدد مع السَّواد. مَن لم يَطر له اسم على ألسنة العامة بالسؤدد، لم ينفعه ما طار له في الخاصة[6].

هـ ـ بلاغتــه:

كان فصيحاً مفوّهاً[7]. خطب مرة فقال بعد حمد الله والثناء عليه: يا معشر الأزد وربيعة: أنتم إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الصهر، وأشقاؤنا في النسب، وجيراننا في الدار، ويدنا على العدو، والله لأزد البصرة أحبُّ إلينا من تميم الكوفة، ولأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام، فإن استشرف شنآن حسد صدوركم ففي أحلامنا وأموالنا سعة لنا ولكم[8].

لقد كان حاضر البديهة قوي الحجة منطقياً. جاء الأحنف إلى قوم يتكلمون في دم،

(1) قادة فتح السند وأفغانستان، ص(308).
(2) تهذيب ابن عساكر (7/ 19، 20).
(3) البداية والنهاية (7/ 331).
(4) وفيات الأعيان وأبناء الزمان، لابن خلكان (2/ 187).
(5) وفيات الأعيان (2/ 188).
(6) قادة فتح السند وأفغانستان، ص(309).
(7) المصدر نفسه.
(8) المصدر نفسه.

فقال: احكموا! فقالوا: نحكم بديتين! فقال: ذلك لكم. فلما سكتوا قال: أنا أعطيكم ما سألتم، غير أني قائل لكم شيئاً: إن الله عز وجل قضى بدية واحدة، وإن النبي ﷺ قضى بديّة واحدة، وأنتم اليوم طالبون وأخشى أن تكونوا غداً مطلوبين، فلا يرضى الناس منكم إلا بمثل ما سننتم لأنفسكم!، فقالوا: نردها دية واحدة[1].

وسمع الأحنف رجلاً يقول: ما أبالي أمُلِحت أم ذُمِمت، فقال له: لقد استرحت من حيث تعب الكرام[2].

و ـ إيثاره:

كان الأحنف يحب لغيره ما يحبه لنفسه، بل كان يؤثر غيره على نفسه بالخير والمعروف، ويرضي نفسه الرضية المطمئنة إلى ما أصاب غيره بجهده من خير، فعندما جاء الأحنف إلى عمر في المدينة، عرض أمير المؤمنين عليه جائزة، فقال: يا أمير المؤمنين والله ما قطعنا الفلوات ودأبنا الروحات والعشيات للجوائز، وما حاجتي إلا حاجة مَن خلفي، فزاده ذلك عند عمر خيراً[3].

ز ـ أمانتـه:

كان الأحنف أميناً غاية الأمانة، وقد مر بنا عندما استعمل ابن عمه على أهل بلخ، وقد قبض ابن عمه ما صالحوه عليه من آنية الذهب والفضة ودنانير ودراهم ومتاع وثياب، فقال ابن عمه لهم: هذا ما صالحناكم عليه؟ فقالوا: لا!! ولكن هذا شيء نصنعه في هذا اليوم بمن ولينا نستعطفه به، قال: وما هذا اليوم؟ فقالوا: المهرجان[4]، فقال: ما أدري ما هذا، وإني لأكره أن أرده، ولعله من حقي ولكن أقبضه وأعزله حتى أنظر، فقبضه وقدم الأحنف فأخبره فسألهم عنه، فقالوا مثل ما قال لابن عمه، فقال: آتي به الأمير، فحمله إلى عبد الله بن عامر فأخبره عنه فقال: اقبضه يا أبا بحر فهو لك، فقال الأحنف:

---

(1) وفيات الأعيان (2/ 188).
(2) المصدر نفسه.
(3) تهذيب ابن عساكر (7/ 12).
(4) المهرجان: أحد أعياد الفرس.

لا حاجة لي فيه[1]، لقد كان يتحرج حتى من الهدايا وكان يكتفي بسهمه من الغنائم[2].

ح ـ أناتــه:

كان الأحنف شديد الأناة، لا يقدم على عمل إلا بعد أن يحسب له ألف حساب. قيل له: يا أبا بحر: إن فيك أناة شديدة، فقال: قد عرفت من نفسي عجلة في أمور ثلاثة: في صلاتي إذا حضرت حتى أصليها، وجنازتي إذا حضرت حتى أغيِّبها في حفرتها، وابنتي إذا خطبها كفيئها حتى أزوِّجه[3].

ط ـ ورعــه:

كان الأحنف مؤمناً ورعاً قوي الإيمان، فقد سارع إلى اعتناق الإسلام أول ما بلغته الدعوة الإسلامية، وأسلم قومه بإشارته[4]، وبسط حمايته القوية الأمينة على الدعاة الأولين[5]، وثبت على عقيدته عندما ارتد أكثر قومه وأكثر العرب بعد وفاة النبي ﷺ، وجاهد للدفاع عنها ونشرها حق الجهاد وأبلى في ذلك أعظم البلاء. قال الحسن البصري عنه: ما رأيت شريف قوم أفضل منه[6]. قال الأحنف: حبسني عمر بن الخطاب عنده بالمدينة سنة، يأتيني كل يوم وليلة، فلا يأتيه عني إلا ما يحب[7]، فكتب عمر بعد نجاح الأحنف في الاختبار العمري ـ وما أصعبه وأدقه من اختبار ـ معه كتباً إلى الأمير على البصرة يقول: الأحنف سيد أهل البصرة[8]، وكتب إلى أبي موسى الأشعري أن يشاور الأحنف ويسمع منه[9]، وقال له عمر بعد أن حبسه حولاً عنده: يا أحنف: قد بلوتك

(1) تاريخ الطبري (5/ 319).
(2) قادة فتح السند وأفغانستان، محمود شيت خطاب، ص(313).
(3) طبقات ابن سعد (7/ 96).
(4) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أبو الفلاح عبد الحي (1/ 78).
(5) قادة فتح السند وأفغانستان، ص(314).
(6) البداية والنهاية (7/ 331).
(7) قادة فتح السند وأفغانستان، ص(314).
(8) المصدر نفسه.
(9) تهذيب ابن عساكر (7/ 12).

وخبرتك، فلم أر إلا خيراً، ورأيت علانيتك حسنة. وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك[1].

لقد كان الأحنف رجلاً صالحاً كثير الصلاة بالليل، وكان يسرج المصباح ويصلي ويبكي حتى الصباح، وكان يضع أصبعه في المصباح ويقول لنفسه: إذا لم تصبر على المصباح، فكيف تصبر على النار الكبرى[2]، وقيل له: إنك تكثر الصوم وإن ذلك يرق المعدة، فقال: إني أعده لسفر طويل[3]، واستُعمل الأحنف على (خراسان)، فلما أتى فارس أصابته جنابة في ليلة باردة فلم يوقظ أحداً من غلمانه ولا جنده وانطلق يطلب الماء، فأتى على شوك وشجر حتى سالت قدماه دماً، فوجد الثلج، فكسره واغتسل[4]، وكان قلّ ما خلا إلاّ دعا بالمصحف، وكان النظر في المصاحف خلقاً في الأولين[5]، وكان في دعائه: اللهم إن تغفر لي فأنت أهل ذاك، وإن تعذبني فأنا أهل ذاك[6]، ومن دعائه: اللهم هبْ لي يقيناً تهون به عليّ مصيبات الدنيا[7]. ومرت به جنازة فقال: رحم الله مَن أجهد نفسه لمثل هذا اليوم[8]، وكان يقول: عجبت لمن يجري في مجرى البول مرتين: كيف يتكبر[9]؟!

هذه بعض صفات شخصية الأحنف استحوذ بها على ثقة الناس به وحبهم وتقديرهم له، وهذه الصفات تجعل مَن يتحلى بها شخصية قوية نافذة يندر وجودها بين الناس في كل زمان ومكان، وقلما يجود بها الدهر إلا نادراً[10]. لقد كان الأحنف من قادة الفتوحات في عهد عثمان رضي الله عنه، وقد تميز في قيادته لجيوش الفتح لبلاد المشرق بقدرته

(1) طبقات ابن سعد (7/ 94).
(2) البداية والنهاية (7/ 331).
(3) طبقات ابن سعد (7/ 94)؛ قادة فتح السند وأفغانستان، ص(315).
(4) طبقات ابن سعد (7/ 94).
(5) المصدر نفسه (7/ 95).
(6) قادة فتح السند وأفغانستان، ص(315) ترجمة الأحنف لخصتها من هذا الكتاب القيم مع الرجوع لبعض المصادر.
(7) تهذيب ابن عساكر (7/ 16).
(8) المصدر نفسه.
(9) البداية والنهاية (7/ 331).
(10) قادة فتح السند وأفغانستان، ص(316).

على إعداد الخطط الصحيحة الناجحة وإعطاء القرارات السريعة الصائبة، كما كان لشجاعته الشخصية وإقدامه أثر كبير في وضع تلك الخطط والقرارات في حيّز التنفيذ، لقد كان يبذل قصارى جهده في إعداد خططه العسكرية وإعطاء ذوي الرأي، بل يتجول سراً في الليل بين عامة رجاله يتسمع أحاديثهم، فإذا وجد رأياً سديداً يبدونه فيما بينهم، سارع إلى العمل به، لا يهمه أن يأخذ الحكمة من أي وعاء، وقد كان هذا القائد الميداني في عهد عثمان يقاتل عدوه بسيفه وعقله معاً، فقد كان على جانب عظيم من الشجاعة والإقدام، حتى إنه كان يستأثر بالخطر دون رجاله ويؤثرهم بالراحة والأمن؛ كما كان على جانب عظيم من الدهاء، فيوفر بدهائه على قواته كثيراً من الجهود والمشقات[1].

لقد كان الأحنف رجلاً في أمة، وأمة في رجل... إنه سيد أهل المشرق المسمى بغير اسمه، كما كان يقول عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه[2].

لقد كان عن الأحنف من ضمن قادة الفتوح في عهد عثمان، وممن ساهم في صناعة الحياة في عصر الخليفة الراشد الثالث الذي وُجِّهت إليه سهام الأعداء الكاذبة في ولاته وقادة حربه.

المبحث الثاني

الفتوحات في الشام

أولاً: فتوحات حبيب بن مسلمة الفهري:

مرّ بنا أن الروم أجلبت على المسلمين بالشام بجموع عظيمة أول خلافة عثمان، فكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة بالكوفة أن يمد إخوانه بالشام، فأمدهم بثمانية آلاف ولّى عليهم سلمان بن ربيعة الباهلي، فظفر المسلمون بعدوهم بعد أن غزوهم في أرض الروم فأسروا منهم وغنموا، وكان تحالف الروم والترك قد تجمع لملاقاة المسلمين الذي غزوا أرمينية من الشام، وكان على المسلمين حبيب بن مسلمة وكان صاحب كيد لعدوه، فأجمع أن يُبيّت قائدهم الموريان ـ أي يباغته ليلاً ـ فسمعته امرأته أم عبد الله بنت يزيد الكلبية يذكر ذلك، فقالت: فأين موعدك؟ قال: سرادق الموريان أو الجنة... ثم بيّتهم

(1) قادة فتح السند وأفغانستان، ص(320).

(2) المصدر نفسه، ص(322).

فغلبهم، وأتى سرادق الموريان فوجد امرأته قد سبقته إليه[1]، وواصل حبيب جهاده وانتصاراته المتوالية في أراضي أرمينية وأذربيجان إما صلحاً أو عنوة[2].

لقد كان حبيب بن مسلمة الفهري من أبرز القادة الذين حاربوا في أرمينيا البيزنطية، فقد أباد جيوشاً بأكملها للعدو، وفتح حصوناً ومدناً كثيرة[3]، كما غزا ما يلي ثغور الجزيرة العراقية من أرض الروم، فافتتح عدة حصون هناك، مثل شمشاط وملطية وغيرهما، وفي سنة 25هـ غزا معاوية الروم فبلغ عمُّورية فوجد الحصون التي بين أنطاكية وطرسوس خالية، فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة، وواصل قائده قيس بن الحر العبسي الغزو في الصيف التالي، ولما فرغ هدم بعض الحصون القريبة من أنطاكية كي لا يفيد منها الروم[4].

ثانياً: أول مَن أجاز الغزو البحري عثمانُ بن عفان:

كان معاوية بن أبي سفيان ـ وهو أمير الشام ـ يلح على عمر بن الخطاب في غزو البحر، ويصف له قرب الروم من حمص ويقول: إن قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم، حتى كان ذلك يأخذ بقلب عمر، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: صف لي البحر وراكبه، فإن نفسي تنازعني إليه، فكتب إليه عمرو: إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، إنْ ركن خرَّق القلب، وإن تحرَّك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة، هم كدود على عود؛ إن مال غرق، وإن نجا برق، فلما قرأ عمر بن الخطاب كتاب عمرو بن العاص كتب إلى معاوية: أن لا، والذي بعث محمداً بالحق، لا أحمل فيه مسلماً أبداً، وتالله لمسلم أحب إليَّ مما حوت الروم، فإياك أن تعرض لي، وقد تقدمت إليك، وقد علمت ما لقي العلاء منِّي، ولم أتقدم إليه في ذلك[5]، ولكن الفكرة لم تبرح نفس معاوية، وقد رأى في الروم ما رأى، فطمع في بلادهم وفي فتحها، فلما تولى الخلافة عثمان عاود معاوية الحديث وألح به على عثمان،

(1) تاريخ الطبري (5/ 248).
(2) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، حمدي شاهين، ص(252).
(3) حروب الإسلام في الشام في عهود الخلفاء الراشدين، محمد أحمد باشميل ص(577).
(4) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، ص(253).
(5) تاريخ الطبري (5/ 258).

obeikandl.com

فرد عليه عثمان رضي الله عنه قائلاً: (أن قد شهدت ما رد عليك عمر رحمه الله حين استأذنته في غزو البحر) ثم كتب إليه معاوية مرة أخرى يهون عليه ركوب البحر إلى قبرص فكتب إليه: (فإن ركبت معك امرأتك فاركبه مأذوناً وإلا فلا)[1]، كما اشترط عليه الخليفة عثمان رضي الله عنه أيضاً بقوله: (لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم، خيّرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه)[2]، فلما قرأ معاوية كتاب عثمان نشط لركوب البحر إلى قبرص فكتب لأهل السواحل يأمرهم بإصلاح المراكب وتقريبها إلى ساحل حصن عكا فقد رمَّمه ليكون ركوب المسلمين منه إلى قبرص[3].

ثالثاً: غزوة قبرص:

أعد معاوية المراكب اللازمة لحمل الجيش الغازي، واتخذ ميناء عكا مكاناً للإقلاع، وكانت المراكب كثيرة، وحمل معه زوجه فاختة بنت قرظة، كذلك حمل عبادة بن الصامت امرأته أم حرام بنت ملحان معه في تلك الغزوة[4].

وأم حرام هذه هي صاحبة القصة المشهورة: عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ يوماً فأطعمته ثم جلست تفلي من رأسه فنام رسول لله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟

قال: «**ناس من أمتي عرضوا عليَّ غزاة في سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرة، أو مثل الملوك على الأسرة**». قالت: فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها، ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟

قال: «**ناس من أمتي عرضوا عليَّ في سبيل الله...**»، كما قال في الرواية الأولى. قال: «**أنت من الأولين**». فركبت أم حرام بنت ملحان البحر في زمن معاوية، فصرعت

---

(1) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية، د. سليمان بن صالح (2/ 538).

(2) تاريخ الطبري (5/ 260).

(3) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (2/ 538).

(4) البداية والنهاية (7/ 153).

عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت[1].

ورغم أن معاوية رضي الله عنه لم يجبر الناس على الخروج، فقد خرج معه جيش عظيم من المسلمين[2]، مما يدل على أن المسلمين قد هانت في أعينهم الدنيا بما فيها، فأصبحوا لا يعبأون بها بالرغم من أنها قد فتحت عليهم أبوابها، فصاروا يرفلون في نعيمها.

إن المسلمين قد تربوا على أن ما عند الله خير وأبقى، وأن الله اصطفاهم لنصرة دينه وإقامة العدل ونشر الفضيلة، والعمل على إظهار دين الله على كل ما عداه، وهم يعتقدون أن هذه المهمة هي رسالتهم الحقيقية، وأن الجهاد في سبيل الله هو سبيل الحصول على مرضاة الله، فإن هم قصَّروا في مهمتهم، وقعدوا عن أداء واجبهم فسيمسك الله عنهم نصره في الدنيا، ويحرمهم مرضاته في الآخرة، وذلك هو الخسران المبين، من أجل هذا هرعوا مع معاوية وتسابقوا إلى السفن يركبونها، ولعل حديث أم حرام قد ألم بخواطرهم، فدفعهم إلى الخروج للغزو في سبيل الله تصديقاً لحديث رسول الله ﷺ، وكان ذلك بعد انتهاء فصل الشتاء في سنة ثمان وعشرين من الهجرة (649م)[3].

وسار المسلمون من الشام وركبوا من ميناء عكا متوجهين إلى قبرص، ونزل المسلمون إلى الساحل، تقدمت أم حرام لتركب دابتها، فنفرت الدابة وألقت أم حرام على الأرض، فاندقت عنقها فماتت[4]، وترك المسلمون أم حرام بعد دفنها في أرض الجزيرة عنواناً على مدى التضحيات التي قدمها المسلمون في سبيل نشر دينهم، وعرف قبرها هناك بقبر المرأة الصالحة[5].

واجتمع معاوية بأصحابه وكان فيهم: أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري، وعبادة بن الصامت، وواثلة بن الأسقع، وعبد الله بن بشر المازني، وشداد بن أوس بن ثابت، والمقداد بن الأسود، وكعب الحبر بن ماتع،

(1) البخاري رقم (2877).

(2) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين، د. محمد السند الوكيل ص(356).

(3) المصدر نفسه.

(4) البداية والنهاية (7/ 159).

(5) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين، ص(357).

وجبير بن نفير الحضرمي[1]. وتشاوروا فيما بينهم، وأرسلوا إلى أهل قبرص يخبرونهم أنهم لم يغزوهم للاستيلاء على جزيرتهم[2]، ولكن أرادوا دعوتهم لدين الله ثم تأمين حدود الدولة الإسلامية بالشام، وذلك لأن البيزنطيين كانوا يتخذون من قبرص محطة يستريحون فيها إذا غزوا، ويتموَّنون منها إذا قل زادهم، وهي بهذه المثابة تهدد بلاد الشام الواقعة تحت رحمتها، فإذا لم يطمئن المسلمون على مسالمة هذه الجزيرة لهم وخضوعها لإرادتهم فإن وجودها كذلك سيظل شوكة في ظهورهم وسهماً مسدداً في صدورهم، ولكن سكان الجزيرة لم يستسلموا للغزاة ولم يفتحوا لهم بلادهم، بل تحصنوا في العاصمة ولم يخرجوا لمواجهة المسلمين، وكان أهل الجزيرة ينتظرون تقدم الروم للدفاع عنهم، وصد هجوم المسلمين عليها[3].

رابعاً: الاستسلام وطلب الصلح:

تقدم المسلمون إلى عاصمة قبرص (قسطنطينا) وحاصروها وما هي إلا ساعات حتى طلب الناس الصلح، وأجابهم المسلمون إلى الصلح، وقدموا للمسلمين شروطاً، واشترط عليهم المسلمون شروطاً، وأما شرط أهل قبرص فكان في طلبهم ألا يشترط عليهم المسلمون شروطاً تورطهم مع الروم لأنهم لا قبل لهم بهم، ولا قدرة لهم على قتالهم. وأما شروط المسلمين:

1 ـ ألا يدافع المسلمون عن الجزيرة إذا هاجم سكانها محاربون.

2 ـ أن يدل سكان الجزيرة المسلمين على تحركات عدوهم من الروم.

3 ـ أن يدفع سكان الجزيرة للمسلمين سبعة آلاف ومائتي دينار في كل عام.

4 ـ أن يكون طريق المسلمين إلى عدوهم عليهم.

5 ـ ألا يساعدوا الروم إذا حاولوا غزو بلاد المسلمين، ولا يطلعوهم على أسرارهم[4].

---

(1) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين، ص(357).

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) تاريخ الطبري (5/ 261).

وعاد المسلمون إلى بلاد الشام، وأثبتت هذه الحملة قدرة المسلمين على خوض غمار المعارك البحرية بجدارة، وأعطت المسلمين فرصة المران على الدخول في معارك من هذا النوع مع العدو المتربص بهم سواء بالهجوم على بلاد الشام أم على الإسكندرية[1].

خامساً: عبد الله بن قيس قائد الأسطول الإسلامي في الشام:

استعمل معاوية بن أبي سفيان على البحر عبد الله بن قيس الجاسي حليف بني فزارة، فغزا خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة في البحر، ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده، وألا يبتليه بمصاب أحد منهم، ففعل، حتى إذا أراد أن يصيبه وحده، خرج في قاربه طليعة، فانتهى إلى المرفأ من أرض الروم، وعليه سُؤَّال يعترُّون[2] بذلك المكان، فتصدق عليهم، فرجعت امرأة من السُّؤَّال إلى قريتها، فقالت للرجال: هل لكم في عبد الله بن قيس؟ قالوا: وأين هو؟ قالت: في المرفأ، قالوا: أي عدوة الله: ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس؟ فوبختهم، وقالت: أنتم أعجز من أن يخفى عبد الله على أحد. فساروا إليه، فهجموا عليه، فقاتلوه وقاتلهم، فأصيب وحده، وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه، فجاءوا حتى أرقوا، والخليفة منهم سفيان بن عوف الأزدي، فخرج فقاتلهم، فضجر وجعل يعبث بأصحابه ويشتمهم، فقالت جارية عبد الله: واعبد الله، ما هكذا كان يقول حين يقاتل! فقال سفيان: وكيف كان يقول؟ قالت: الغمرات ثم ينجلينا فترك ما كان يقول، ولزم: الغمرات ثم ينجلينا. وأصيب في المسلمين يومئذ، وذلك آخر زمان عبد الله بن قيس الجاسي[3]، وقيل لتلك المرأة التي استثارت الروم على عبد الله بن قيس: كيف عرفته؟ قالت: كان كالتاجر، فلما سألته أعطاني كالملك، فعرفت أنه عبد الله بن قيس[4].

وهكذا حينما أراد الله تعالى أن يمنَّ بالشهادة على هذا القائد العظيم أتيحت له وهو في وضع لا يضر بسمعة المسلمين البحرية، حيث كان وحده يتطلع ويراقب

(1) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين، ص(358، 359).

(2) يعترون: يعترضون للناس دون أن يسألوهم.

(3) تاريخ الطبري (5/ 260).

(4) تاريخ الطبري (5/ 260).

الأعداء، فكانت تلك الكائنة الغريبة التي أبصرت غورها تلك المرأة الذكية من نساء تلك البلاد، حيث رأت ذلك الرجل يظهر في مظاهره الخارجية بمظهر التجار العاديين، ولكنه يعطي عطاء الملوك، فلقد رأت فيه أمارات السيادة مع بساطة مظهره، فعرفت أنه قائد المسلمين الذي دوّخ المحاربين في تلك البلاد، وهكذا كانت سماحة ذلك القائد وسخاؤه البارز حتى مع غير المسلمين سبباً في كشف أمره، ومعرفة مركزه، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فيتم بذلك الهجوم عليه وظفره بالشهادة، وهكذا يضرب قادة المسلمين المُثُل العليا بأنفسهم لتتم الإنجازات الكبرى على أيديهم، وليكونوا قدوة صالحة لمن يخلفهم، فقد قام هذا القائد الملهم بمهمة الاستطلاع بنفسه، ولم يكل الأمر إلى جنوده، وفي انفراده بهذه المهمة مظنة للتورط مع الأعداء والهلاك على أيديهم، ولكنه مع ذلك يغامر بنفسه فيتولى هذه المهمة، ثم نجده يتخلق بأخلاق الإسلام العليا حتى مع نساء الأعداء وضعَفَتهم فيمدّ إليهم يد الحنان والعطف، ويسخُو لهم بالمال الذي هو من أعز ما يملك الناس، ونجده قبل ذلك مع جنده رفيقاً صبوراً، لا معنِّفاً ولا مستكبراً، وإذا ادلهمَّت الخطوب تفاءل بانكشاف الغمة ولم يلجأ إلى لوم أصحابه وتعنيفهم، ولم يهيمن عليه الارتباك الذي يفسد العمل، ويعجِّل بالخلل والفوضى. وأما خليفته سفيان الأزدي فلعله وقع فيما وقع فيه من الارتباك والاشتغال بطرح اللائمة على جنده لكونه حديث العهد بأمور القيادة، ولكن ممَّا يُحفظ له أنه لما نبَّهته جارية عبد الله بن قيس إلى ذلك الأسلوب الحكيم الذي كان أميره ينتهجه في القيادة سارع في التأسي به في ذلك، ولم يحمله التكبر على عدم سماع كلمة الحق وإن صدرت من جارية مغمورة، وهذا مثل من أمثلة التجرد من هوى النفس، هذا الخُلق العظيم الذي كان غالباً في الجيل الأول، وبه تمّ إنجاز الفتوحات العظيمة، ونجاح الولاة والقادة في إدارة أمور الأمة، فللَّه در أبناء ذلك الجيل: ما أبلغ ذكرهم، وما أبعد غورهم، وما أعظم وطأتهم في الأرض على الجبارين، وما أعذب لمساتهم في الأرض على المستضعفين والمساكين[1].

سادساً: القبارصة ينقضون الصلح:

في سنة اثنتين وثلاثين هجرية، وقع سكان قبرص تحت ضغط رومي عنيف أجبرهم

(1) التاريخ الإسلامي (12/ 402).

على إمداد جيش الروم بالسفن ليغزوا بها بلاد المسلمين، وبذلك يكون القبرصيون قد أخلوا بشروط الصلح، وعلم معاوية بخيانة أهل قبرص، فعزم على الاستيلاء على الجزيرة ووضعها تحت سلطان المسلمين، فقد هاجم المسلمون الجزيرة هجوماً عنيفاً فقتلوا وأسروا وسلبوا، هجم عليها جيش معاوية من جهة، وعبد الله بن سعد من الجانب الآخر، فقتلوا خلقاً كثيراً، وسبوا سبياً كثيراً وغنموا مالاً جزيلاً[1]، وتحت ضغط القوات الإسلامية اضطر حاكم قبرص أن يستسلم للفاتحين، ويلتمس منهم الصلح، فأقرهم معاوية على صلحهم الأول[2]، وخشي معاوية أن يتركهم هذه المرة بغير جيش يرابط في الجزيرة، فيحميها من غارات الأعداء ويضبط الأمن فيها حتى لا تتمرد على المسلمين، فبعث إليهم اثني عشر ألفاً من الجنود ونقل إليهم جماعة من بعلبك وبنى هناك مدينة، وأقام فيها مسجداً، وأجرى معاوية على الجنود أرزاقهم وظل الحال على ذلك، الجزيرة هادئة والمسلمون آمنون من هجمات الروم المفاجئة، ولاحظ المسلمون أن أهل قبرص ليس فيهم قدرات عسكرية، وهم مستضعفون أمام مَن يغزوهم، وأحس المسلمون أن الروم يغلبونهم على أمرهم، ويسخرونهم لمصالحهم، فرأوا أن من حقهم عليهم أن يحموهم من ظلم الروم، وأن يمنعوهم من تسلط البيزنطيين.

وقال إسماعيل بن عياش: أهل قبرص أذلاء مقهورون يغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم، فقد يحق علينا أن نمنعهم ونحميهم[3].

سابعاً: ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه:

وقد جاء في سياق هذه الغزوة المذكورة خبر أبي الدرداء رضي الله عنه حينما نظر إلى سبي الأعداء، فبكى، ثم قال: ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه، فانظر إلى هؤلاء القوم بينما هم ظاهرون قاهرون لمن ناوأهم، فلما تركوا أمر الله عز وجل وعصوه صاروا إلى ما ترى[4]، وجاء في رواية: فقال له جبير بن نفير: أتبكي وهذا يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك إن هذه كانت أمة قاهرة لهم ملك، فلما ضيعوا أمر الله صيّرهم إلى

(1) جولة تاريخية، ص(359، 360).

(2) البلاذري، ص(158).

(3) جولة تاريخية، ص(361).

(4) التاريخ الإسلامي (12/ 396).

ما ترى، سلط الله عليهم السبي، وإذا سلط على قوم السبي فليس لله فيهم حاجة، وقال: ما أهون العباد على الله تعالى إذا تركوا أمره[1].

إن ما تفوَّه به أبو الدرداء، يعتبر مثلاً للبصيرة النافذة والفقه في أمر الله تعالى، فهذا الصحابي الجليل يبكي حسرة على هؤلاء الذين أعمى الله بصائرهم؛ فلم ينقادوا لدعوة الحق فباءوا بهذا المصير المؤلم، حيث تحولوا من الملك والعزة إلى الاستسلام والذلة، لإصرارهم على لزوم الباطل والتكبُّر على الخضوع لدعوة الحق، ولو أنهم عقلوا وتدبَّروا لكان في دخولهم في الإسلام بقاء ملكهم وعمران ديارهم والظفر بحماية دولة الإسلام. وإنَّ هذا التفكير العميق من أبي الدرداء مظهر من مظاهر الرحمة والعطف تفتحت عنه نفسه الزكية، فتشكل ذلك في الظاهر على هيئة دموع تنحدر من عيني هذا الرجل العظيم، ليعبِّر عما يجول في نفسه من نظرات الحنان والرحمة والأسى على مصير تلك الأمة التي اجتمع لها البقاء على الضلال والمآل السيئ بزوال الملك والوقوع في الذل والهوان، وإنه بقدر ما يفرح المسلم بدخول الناس في الإسلام فإنه يحزن من رؤية الكافرين وهم يعيشون في ضلال مع إدراكه ما ينتظرهم من العذاب الأليم المؤبد في الآخرة، فكيف إذا أضيف إلى ذلك وقوعهم في الأسر والتشرد وتعرضهم للقتل في الحياة الدنيا[2]؟!

ثامناً: عبادة بن الصامت يقسم غنائم قبرص:

قال عبادة بن الصامت لمعاوية رضي الله عنهما: شهدت رسول الله ﷺ في غزوة حنين والناس يكلمونه في الغنائم، فأخذ وبرة من بعير وقال: «**ما لي مما أفاء الله عليكم من هذه الغنائم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم**». فاتق الله يا معاوية! واقسم الغنائم على وجهها، ولا تعط منها أحداً أكثر من حقه. فقال له معاوية: قد وليتك قسمة الغنائم، ليس أحد بالشام أفضل منك ولا أعلم، فاقسمها بين أهلها، واتق الله فيها. فقسمها عبادة بين أهلها وأعانه أبو الدرداء وأبو أمامة[3].

(1) البداية والنهاية (7/ 159).

(2) التاريخ الإسلامي (12/ 397).

(3) الرياض النضرة في مناقب العشرة، لأبي جعفر أحمد الشهير بالمحب الطبري، ص(561).

المبحث الثالث

فتوحات الجبهة المصرية

أولاً: ردع المتمردين في الإسكندرية:

كبُر على الروم خروج الإسكندرية من أيديهم، وظلوا يتحينون الفرص لإعادتها إلى حوزتهم، فراحوا يحرضون مَنْ بالإسكندرية من الروم على التمرد والخروج على سلطان المسلمين، ذلك لأن الروم كانوا يعتقدون أنهم لا يستطيعون الاستقرار في بلادهم بعد خروج الإسكندرية من ملكهم[1]، وصادف تحريض الروم لأهل الإسكندرية هوى في نفوس سكانها فاستجابوا للدعوة وكتبوا إلى قسطنطين بن هرقل يخبرونه بقلة عدد المسلمين، ويصفون له ما يعيش فيه الروم بالإسكندرية من الذل والهوان[2]، وكان عثمان رضي الله عنه قد عزل عمرو بن العاص رضي الله عنه عن مصر، وولي مكانه عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وفي أثناء ذلك وصل منويل الخصي قائد قوات الروم إلى الإسكندرية لإعادتها وتخليصها من يد المسلمين، ومعه قوات هائلة يحملهم في ثلاثمائة مركب مشحونة بكل ما يلزم هذه القوات من السلاح والعتاد[3].

علم أهل مصر بأن قوات الروم قد وصلت إلى الإسكندرية، فكتبوا إلى عثمان يلتمسون إعادة عمرو بن العاص ليواجه القوات الغازية فإنه أعرف بحربهم، وله هيبة في نفوسهم، فاستجاب الخليفة لطلب المصريين، وأبقى ابن العاص أميراً على مصر[4]، ونهب منويل وجيشه الإسكندرية، وغادروها بعد أن تركوها قاعاً صفصفاً ليعيثوا فيما حولها من القرى ظلماً وفساداً، وأمهلهم عمرو بن العاص ليمعنوا في الإفساد، وليشعر المصريون بالفرق الهائل بين حكامهم من المسلمين، وحكامهم من الروم، ولتمتلئ قلوب المصريين على الروم حقداً وغضباً فلا يكون لهم من حبهم والعطف عليهم أدنى حظ، وخرج منويل بجيشه من الإسكندرية يقصد مصر السفلى دون أن يخرج إليهم عمرو أو يقاومهم أحد، وتخوف بعض أصحابه، وعمرو كان له رأي آخر، فقد كان يرى أن

(1) الكامل لابن الأثير.
(2) جولة تاريخية، ص(335).
(3) المصدر نفسه.
(4) المصدر نفسه.

يتركهم يقصدونه، ولاشك أنهم سينهبون أموال المصريين، وسيرتكبون من الحماقات في حقهم ما يملأ قلوبهم حقداً عليهم وغضباً منهم، فإذا نهض المسلمون لمواجهتهم عاونهم المصريون على التخلص منهم، وحدد عمرو سياسته هذه بقوله: دعهم يسيروا إليّ، فإنهم يصيبون مَن مروا به، فيُخزي بعضهم ببعض[1].

وقد صدق حدس عمرو، وأمعن الروم في إفسادهم ونهبهم وسلبهم، وضج المصريون من فعالهم، وأخذوا يتطلعون إلى مَن يخلِّصهم من شر هؤلاء الغزاة المفسدين[2].

وصل منويل إلى نقيوس، واستعد عمرو للقائه، وعبأ جنده، وسار بهم نحو عدوه الشرس، وتقابل الجيشان عند حصن نقيوس على شاطئ نهر النيل، واستبسل الفريقان أيما استبسال، وصبر كل فريق صبراً أمام خصمه مما زاد الحرب ضراوة واشتعالاً، ودفع بالقائد عمرو إلى أن يمعن في صفوف العدو، ويقدم فرسه بين فرسانهم، ويشهر سيفه بين سيوفهم، ويقطع به هامات الرجال وأعناق الأبطال، وأصاب فرسه سهم فقتله، فترجل عمرو، وانضم إلى صفوف المشاة، ورآه المسلمون فأقبلوا على الحرب بقلوب كقلوب الأسود لا يهابون ولا يخافون قعقعة السيوف[3]، وأمام ضربات المسلمين وهنت عزائم الروم وخارت قواهم، فانهزموا أمام الأبطال الذين يريدون إحدى الحسنيين، وقصد الروم في فرارهم الإسكندرية لعلهم يجدون في حصونها المنيعة وأسوارها الشاهقة ما يواري عنهم شبح الموت الذي يلاحقهم[4].

وخرج المصريون بعد أن رأوا هزيمة الروم يصلحون للمسلمين ما أفسده العدو الهارب من الطرق، ويقيمون لهم ما دمره من الجسور، وأظهر المصريون فرحتهم بانتصار المسلمين على العدو الذي انتهك حرماتهم واعتدى على أموالهم وممتلكاتهم، وقدموا للمسلمين ما ينقصهم من السلاح والمؤونة[5].

(1) جولة تاريخية، ص(336)؛ عثمان بن عفان، هيكل، ص(67).
(2) المصدر نفسه، ص(336).
(3) المصدر نفسه، ص(338).
(4) البلاذري، ص(69).
(5) جولة تاريخية، ص(338).

ولما وصل عمرو الإسكندرية ضرب عليها الحصار ونصب عليها المجانيق وظل يضرب أسوار الإسكندرية حتى أوهنها وألح عليها بالضرب، حتى ضعف أهلها وتصدَّعت أسوارها وفتحت المدينة الحصينة أبوابها، ودخل المسلمون الإسكندرية، وأعملوا سيوفهم في الروم يقتلون المقاتلين، ويأسرون النساء والذرية وهرب مَن نجا من الموت لاجئين إلى السفن ليفروا بها عائدين من حيث أتوا، وكان منويل في عداد القتلى، ولم يكفَّ المسلمون عن القتل والسبي حتى أمر عمرو بذلك لما توسط المسلمون المدينة، ولما لم يكن هناك مَن يقاوم أو يتصدى لهم[1]، ولما فرغ المسلمون أمر عمرو ببناء مسجد في المكان الذي أوقف فيه القتال وسماه مسجد الرحمة[2]، وعادت إلى العاصمة العتيدة طمأنينتها، وعاد السكينة إلى قلوب المصريين فيها، فرجع إليها مَن كان قد فرّ منها، أمام الزحف الرومي الرهيب، وعاد بنيامين بطريق القبط إلى الإسكندرية بعد أن فرّ مع الفارين، وأخذ يرجو عَمراً ألا يسيء معاملة القبط لأنهم لم ينقضوا عهدهم، ولم يتخلَّوا عن واجبهم، ورجاه كذلك ألا يعقد صلحاً مع الروم، وأن يدفنه إذا مات في كنيسة يحنس[3].

وجاء المصريون من كل حدب وصوب إلى عمرو يشكرونه على تخليصهم من ظلم الروم، ويطلبون منه إعادة ما نهبوا من أموالهم ودوابهم معلنين ولاءهم وطاعتهم فقالوا: إن الروم قد أخذوا دوابنا وأموالنا ولم نخالف نحن عليكم وكنا على الطاعة، فطلب منهم عمرو أن يقيموا البينة على ما ادعوا ومَن أقام بينة وعرف ما له بعينه رده[4] عليه. وهدم عمرو سور الإسكندرية، وكان ذلك في سنة 25هـ وأصبحت الإسكندرية آمنة من جهاتها كلها رغم هدم سورها، فقد كان شرقيها في قبضة المسلمين، وكذلك جنوبها، وأما غربيها فقد أمنه عمرو بن العاص بفتح برقة وزويلة وطرابلس الغرب، وصالح أهل هذه البلاد على الجزية فكانوا يدفعونها طائعين، وأما شمالها فكان في قبضة الروم، وقد تلقنوا درساً على يد المسلمين لم يترك لهم فرصة للتفكير في العودة، وحتى لو فكروا في

(1) جولة تاريخية، ص(338).
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه، ص(340).
(4) المصدر نفسه.

العودة فهيهات أن يدخلوها وليس لهم فيها نصير ولا معين، وقوات المسلمين تراقب البحر بكل يقظة واهتمام[1].

ثانياً: فتح بلاد النوبة:

كان عمرو بن العاص قد شرع في فتح بلاد النوبة بإذن من الخليفة عمر، فوجد حرباً لم يتدرب عليها المسلمون وهي الرمي بالنبال في أعين المحاربين، حتى فقدوا مائة وخمسين عيناً في أول معركة، ولهذا قبل الجيش الصلح، ولكن عمرو بن العاص رفض ذلك للوصول إلى شروط أفضل[2]، وعندما تولى ابن سعد ولاية مصر غزا النوبة في عام إحدى وثلاثين هجرية، فقاتله الأساود من أهل النوبة قتالاً شديداً، فأصيبت يومئذ عيون كثيرة من المسلمين، فقال شاعرهم:

لم ترَ عينٌ مثلَ يومِ دُمقُلة والخيلُ تعدو بالدروعِ مُثْقَلة[3]

فسأل أهل النوبة عبد الله بن سعد المهادنة، فهادنهم الهدنة بقيت إلى ستة قرون[4]، وعقد لهم عقداً يضمن لهم استقلال بلادهم، ويحقق للمسلمين الاطمئنان إلى حدودهم الجنوبية، ويفتح النوبة للتجارة والحصول على عدد من الرقيق في خدمة الدولة الإسلامية، وقد اختلط المسلمون بالنوبة والبجة، واعتنق كثير منهم الإسلام[5].

ثالثاً: فتح إفريقية:

كان من مقاصد حملة عمرو بن العاص رضي الله عنه لبرقة وطرابلس وبقية مناطق ليبيا، فتح البلاد وإزالة الطاغوت الروماني عن قلوب العباد حتى تتضح لهم السبل، وتفترق لهم الطرق، وتصبح حرية الاختيار في متناول تلك الشعوب، وبعد تلك الحملة المباركة التي كانت سبباً في دخول ذلك النور إلى تلك المناطق المظلمة بعبادة الأصنام والتقرب إليها بالقرابين، واتخاذ الأنداد والأرباب من البشر من دونه ﷻ، وإخراجهم من عبادة العباد

(1) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين، ص(341).
(2) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص(229).
(3) قادة الفتح لبلاد المغرب (1/ 61 ـ 63).
(4) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص(229).
(5) قادة الفتح لبلاد المغرب (1/ 61 ـ 63).

obeikandl.com

إلى عبادة رب العباد. وعن حملة عبد الله بن سعد على إفريقية[1] يقول الدكتور صالح مصطفى: «وفي سنة 26هـ/ 646م عُزل عمرو بن العاص رضي الله عنه عن ولاية مصر، واستعمل عليها عبد الله بن سعد رضي الله عنه، وكان عبد الله بن سعد يبعث جرائد الخيل كما كانوا يفعلون أيام عمرو بن العاص فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون»[2]، وكانت جرائد الخيل تقصد إفريقية ـ تونس ـ تمهيداً لفتحها، ومعرفة وضعها، فكان حال هذه الجرائد أشبه ما يكون بكتائب الاستطلاع التي تعتبر مقدمة الجيش وعيونه.

فلما اجتمعت عند عبد الله بن سعد معلومات كافية عن إفريقية من ناحية مداخلها ومخارجها، وقوتها وعتادها، وموقعها الجغرافي الإستراتيجي، كتب حينئذ إلى الخليفة الراشد عثمان بن عفان يخبره بهذه المعلومات المهمة عن إفريقية، يستأذن بناء على تلك المعلومات بفتحها، فكان له ما طلب.

يقول الدكتور صالح مصطفى: «ولما استأذن عبد الله بن سعد الخليفة عثمان بن عفان في غزو إفريقية، جمع الصحابة واستشارهم في ذلك، فأشاروا عليه بفتحها، إلا أبا الأعور سعيد بن زيد، الذي خالفه متمسكاً برأي عمر بن الخطاب في ألا يغزو أفريقية أحد من المسلمين، ولما أجمع الصحابة على ذلك، دعا عثمان للجهاد، واستعدت المدينة عاصمة الخلافة الإسلامية لجمع المتطوعين، وتجهيزهم، وترحيلهم إلى مصر، لغزو إفريقية تحت قيادة عبد الله بن سعد، وقد ظهر الاهتمام بأمر تلك الغزوة جليًّا، فهذا يتضح من الذين خرجوا إليها من كبار الصحابة، ومن خيار شباب آل البيت، وأبناء المهاجرين الأوائل، وكذلك الأنصار فقد خرج في تلك الغزوة: الحسن والحسين، وابن عباس وابن جعفر، وغيرهم.

هذا وقد خرج من قبيلة مهرة وحدها في غزوة عبد الله بن سعد ستمائة رجل، ومن غنث سبعمائة رجل، ومن ميدعان سبعمائة رجل، وعندما بات الاستعداد تاماً، خطب عثمان فيهم، ورغّبهم في الجهاد، وقال لهم: لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم إلى أن تقدموا على عبد الله بن سعد، فيكون الأمر إليه، وأستودعكم الله.

(1) الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي للصلّابيّ، ص(189).

(2) ليبيا من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، د. صالح مصطفى مفتاح المزيني، ص(49).

ويقال: إن عثمان رضي الله عنه قد أعان في هذه الغزوة بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس، وعندما وصل هذا الجيش إلى مصر، انضم إلى جيش عبد الله بن سعد، وتقدم من الفسطاط تحت قيادة عبد الله ذلك الجيش الذي يقدر بعشرين ألفاً يخترق الحدود المصرية الليبية، وعندما وصلوا إلى برقة انضمَّ إليهم عقبة بن نافع الفهري، ومن معه من المسلمين، ولم يواجه الجيش الإسلامي أية صعوبة أثناء سيرهم في برقة، وذلك لأنها ظلت وفية لما عاهدت المسلمين عليه من الشروط زمن عمرو بن العاص، حتى إنه لم يكن يدخلها جابي الخراج، وإنما كانت تبعث بخراجها إلى مصر في الوقت المناسب، ومما يؤكد بقاء برقة على عهدها لعمرو بن العاص، ما ذكر، أنه سُمعَ يقول: قعدت مقعدي هذا، وما لأحد من قبط مصر عليّ عهد إلا أهل أنطابلس[1]، فإن لهم عهداً يوفى لهم به، كما أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان يقول: ولولا ما لي بالحجاز لنزلت برقة، فما أعلم منزلاً أسلم ولا أعزل منها[2].

وهكذا انطلقت هذه الحملة المباركة نحو إفريقية، وكان ذلك بعد انضمام قوات عقبة بن نافع إليها، إلا أن عبد الله بن سعد قائد الحملة ما فتئ يرسل الطلائع والعيون في جميع الاتجاهات لاستكشاف الطرق وتأمينها، ورصد تحركات العدو وضبطها، تحسباً لأي كمين، أو مباغتة تطرأ على حين غفلة، فكان من نتائج تلك الطلائع الاستطلاعية أن تمَّ رصد مجموعات من السفن الحربية تابعة للأمبراطورية الرومانية، حيث كانت هذه السفن الحربية قد رست في ساحل ليبيا البحري بالقرب من مدينة طرابلس، فما هي إلا برهة من الزمن حتى كان ما تحمله هذه السفن غنيمة للمسلمين، وقد أسروا أكثر من مائة من أصحابها، وتعتبر هذه أول غنيمة ذات قيمة أصابها المسلمون في طريقهم لفتح إفريقية[3]، وواصل عبد الله بن سعد السير إلى إفريقية، وبث طلائعه وعيونه في كل ناحية، حتى وصل جيشه إلى مدينة سبيطلة بأمان، وهناك التقى الجمعان، جيش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد، وجيش جرجير حاكم إفريقية، وكان تعداد جيشه يبلغ حوالي مائة وعشرين ألفاً.

---

(1) أنطابلس: معناها برقة.

(2) ليبيا من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، ص(39).

(3) الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي، ص(191).

وكان بين القائدين اتصالات مستمرة، ورسائل متبادلة، فحواها عرض الدعوة الإسلامية على جرجير ودعوته للدخول في الإسلام، ويستسلم لأمر الله سبحانه، أو أن يدفع الجزية، ويبقى على دينه خاضعاً لسيادة الإسلام، ولكن كل تلك العروض، رفضها وأصرّ واستكبر هو وجنوده؛ وضاق الأمر بالمسلمين، ونشبت المعركة بين الجمعين، وحمي الوطيس بينهما لعدة أيام، حتى وصل مدد بقيادة عبد الله بن الزبير، وكانت نهاية هذا المتكبر الطاغي جرجير على يديه[1].

ولما رأى الروم الذين بالساحل ما حل بجرجير وأهل سبيطلة، غارت أنفسهم وتجمعوا، وكاتب بعضهم بعضاً في حرب عبد الله بن سعد إياهم، فخافوه وراسلوه، وجعلوا له جعلاً على أن يرتحل بجيشه، وألا يعترضوه بشيء، ووجهوا إليه ثلاثمائة قنطار من الذهب في بعض الروايات، وفي البعض الآخر مائة قنطار، جزية في كل سنة على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم، فقبل ذلك منهم وقبض المال، وكان في شرط صلحهم أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم، وما أصابوه بعد الصلح رده عليهم، وانصرف راجعاً إلى مصر بعد أن أقام بأفريقية سنة وثلاثة أشهر أو سنة وشهراً في رواية أخرى[2].

وعندما وصل عبد اللَّه بن سعدٍ إلى طرابلس؛ وافته المراكب، فحمل فيها أثقال جيشه، وقصد هو وأصحابه مصر سالمين، ووجَّه عثمان بن عفَّان رضي الله عنه الأموال التي معه من الخمس وغيره، ومن المرجَّح أن تكون السُّفن التي وافته في طرابلس من السفن التي غنمها المسلمون في سورية، والإسكندرية، إذ يذكر إرشيبالد: أنه قد سهّل على العرب بفضل استيلائهم على دور الصناعة البيزنطية في الإسكندرية وسورية سليمةً أن تكون لديهم سفنٌ حربيّةٌ، إما حاضرةٌ، وإما سهلة الإنشاء[3]، بيد أن هناك رواياتٍ تنصُّ على عودة عبد اللَّه بن سعدٍ لأفريقية بعد وصوله إلى مصر، وذلك حين نقض أهلها العهد وكان ذلك سنة ثلاثٍ وثلاثين، فانتصر عليهم وقام بتثبيت دعائم النظام الإسلامي هناك، وأقرّ أهلها على الإسلام، أو الجزية[4].

(1) الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي، ص(193)، البداية والنهاية (7/ 158).
(2) الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي، ص(194).
(3) ليبيا في الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية، ص(46).
(4) الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي، ص(194).

رابعاً: بطولة عبد الله بن الزبير في فتح إفريقية:

انقطع خبر المسلمين في إفريقية عن عثمان رضي الله عنه فسيّر إليهم عبد اللَّه بن الزبير في جماعة ليأتيه بأخبارهم، فسار مُجِدًّا، ووصل إليهم، وأقام معهم، ولما وصل؛ كثُر الصِّياح، والتكبير في المسلمين، فسأل جرجير عن الخبر، فقيل: قد أتاهم عسكرٌ، ففتَّ ذلك في عضده، ورأى عبد اللَّه بن الزبير قتال المسلمين كلَّ يوم من بكرةٍ إلى الظهر فإذا أُذِّن بالظهر عاد كلُّ فريق إلى خيامه، وشهد القتال من الغد فلم يرَ ابن سعد معهم، فسأل عنه فقيل: إنه سمع منادي جرجير يقول: مَن قتل عبد اللَّه بن سعدٍ، فله مئة ألف دينار، وأزوِّجه ابنتي! وهو يخاف، فحضر عنده، وقال له: تأمر منادياً ينادي: مَن أتاني برأس جرجير؛ نفَّلته مئة ألفٍ، وزوَّجته ابنته، واستعملته على بلاده! ففعل ذلك، فصار جرجير يخاف أشدَّ من عبد اللَّه[1].

ثم إن عبد اللَّه بن الزبير قال لعبد اللَّه بن سعد: إنَّ أمرنا يطول مع هؤلاء، وهم في أمداد متصلة وبلاد هي لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين ونقاتل نحن الروم في باطن العسكر إلى أن يضجروا ويملوا فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ركب مَن كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرة، فلعل الله ينصرنا عليهم! فأحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك، فلما كان الغد فعل عبد الله ما اتفقوا عليه، وأقام جميع شُجعان المسلمين في خيامهم، وخيولهم عندهم مُسَرَّجةٌ، ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شديداً، فلما أُذِّن بالظهر همّ الروم بالانصراف على العادة فلم يمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم، ثم عاد عنهم والمسلمون، فكل الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعباً، فعند ذلك أخذ عبد الله بن الزبير مَن كان مستريحاً من شجعان المسلمين وقصد الروم فلم يشعروا بهم حتى خالطهم، وحملوا حملة رجل واحد وكبّروا فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون، وقُتل جرجير قتله ابن الزبير، وانهزم الروم وقتل منهم مقتلة عظيمة وأُخذت ابنة الملك جرجير سبية ونزل عبد الله بن سعد المدينة وحاصرها حتى

(1) التاريخ الإسلامي (12/ 388).

فتحها، ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار، ولما فتح عبد الله مدينة سبيطلة بث جيوشه في البلاد فبلغت قفصة فسبوا وغنموا، وسيَّر عسكراً إلى حصن الأجم، وقد احتمى به أهل تلك البلاد فحصره وفتحه بالأمان فصالحه أهل إفريقية، ـ كما مر معنا ـ ونفَّل عبد الله بن الزبير ابنة الملك، وأرسله ابن سعد إلى عثمان بالبشارة بفتح إفريقية[1].

هذا ولقد كان لعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما موقف عظيم في البطولة والشجاعة. وقد ذكره الحافظ ابن كثير حيث قال: لما قصد المسلمون وهم عشرون ألفاً إفريقية، وعليهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وفي جيشه عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، صمد إليهم ملك البربر جرجير في عشرين ومائة ألف، وقيل: في مائتي ألف، فلما تراءى الجمعان أمر جيشه فأحاطوا بالمسلمين هالة، فوقف المسلمون في موقف لم يُرَ أشنع منه ولا أخوف عليهم منه.

قال عبد الله بن الزبير: نظرت إلى الملك جرجير من وراء الصفوف وهو راكب على برذون، وجاريتان تظلانه بريش الطواويس، فذهب إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح فسألته أن يبعث معي مَن يحمي ظهري، وأقصد الملك، فجهز معي جماعة من الشجعان، فأمر بهم فَحَموا ظهري وذهبت حتى خرقت الصفوف إليه، وهم يظنون أني في رسالة إلى الملك، فلما اقتربت منه أحس مني الشر، ففَّر على برذونه فلحقته فصفعته برمحي، وذففت ـ يعني أجهزت ـ عليه بسيفي، وأخذت رأسه فنصبته على رأس الرمح وكبّرت، فلما رأى ذلك البربر فَرِقُوا وفرُّوا كَقِرار القطا، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فغنموا غنائم جمة وأموالاً عظيمة، وسبياً عظيماً، وذلك ببلد يقال له: (سبيطلة) على يومين من القيروان.

قال ابن كثير: فكان هذا أول موقف اشتهر فيه أمر عبد الله بن الزبير ـ رضي اللَّه عنه وعن أبيه وعن سائر الصحابة الكرام أجمعين[2].

إن ما قام به ابن الزبير نوعٌ من الطموح نحو المعالي المحفوفة بالأهوال، بدون تدرج سابق، لقد كان عمره آنذاك سبعاً وعشرين سنة، ولم يُذكر له قبل ذلك مواقف

(1) الكامل لابن الأثير (3/ 45، 46).
(2) البداية والنهاية (7/ 158).

بطولية من نوع المغامرات، فكيف أقدم على هذه المغامرة الهائلة التي يغلب على الظن، أو يكاد يقرب من اليقين في عرف الناس العاديين أن فيها الهلاك؟

إن الاحتمالات التي يمكن أن ترد في مثل هذه المغامرة أن يدور في خَلَد المغامر أمران:

1 ـ أن ينجح في هجومه فيقضي على ملك البربر، ويتفرق جنده كما هي عادة الكفار، وفي ذلك نصر مؤزر للمسلمين، وكفاية لهم عن خوض معركة شرسة قد تخوف منها المسلمون.

2 ـ أن يتقبله الله شهيداً، وفي ذلك الوصول إلى أسمى الأماني، وأبلغ الدرجات التي يطمح إليها الصالحون ويتنافسون على بلوغها، كما أن في ذلك من إرهاب الكفار وإثارة الرعب فيهم الشيء الكثير، حيث سيتوقع الكفار أن المسلمين الذين سيقاتلونهم كلهم من هذا النوع الجريء الفتاك، إذ أنه يكفي المغامر شجاعة أن يقذف بنفسه في وسط المعركة الملتهب. إنه لا يُقدم على هذه الوثبة العالية إلا العظماء الذين يتصورون الجنة من وراء تلك الوثبة ويشتاقون للعيش فيها، ولقد كان ابن الزبير عندما وثب تلك الوثبة متجرداً من علائق الدنيا وأثقالها المثبطة طامحاً إلى ما أعده الله تعالى للمجاهدين في سبيله على قدر طاقتهم سواء انتصروا على أعدائهم أو نالوا الشهادة[1].

وقد جاء في هذا الخبر: أن البربر بعدما قتل ملكهم فرّوا من جيش المسلمين كفرار القطا، وأن المسلمين تبعوهم يقتلون ويأسرون منهم من غير مقاومة، وإن هذا الخبر دليل على أن الله تعالى مع أوليائه المؤمنين، وأنه يقيض لهم إذا صدقوا ما يخلصهم من الشدائد، وينقذهم من المآزق، فإن المسلمين قد وقعوا في معضلة كبرى، حيث أحاط بهم أعداؤهم الذين يفوقونهم ست مرات في العدد أو أكثر، وكان على المسلمين أن يقاتلوهم من كل جانب، وهو أمر عسير على جيش صغير بالنسبة لكثرة عدوه، كما جاء في قول الراوي: فوقف المسلمون في موقف لم يُر أشنع منه ولا أخوف عليهم منه، فقيض الله لهم هذا البطل المغوار الذي أقدم على مغامرة نادرة المثال، فأنقذ الله به ذلك

(1) التاريخ الإسلامي (12/ 390).

الجيش الإسلامي من عسرة كان يعاني منها[1].

ولا ننسى موقف الأبطال الذين كانوا مع عبد الله بن الزبير يحمون ظهره، فإنهم قد شاركوه في تلك المخاطرة، ولئن لم يَذكر التاريخ أسماءهم فإن عملهم الفدائي قد بقي مخلداً في الدنيا برفع ذكر هذه الأمة حينما تفاخر بأبطالها، وفي الآخرة بما ينتظرون من وعد الله للمجاهدين الصادقين[2].

هذا وقد قدم المسلمون الغالي والرخيص في فتوحات إفريقيا واستشهد منهم الكثير، وممن توفي منهم غازياً بإفريقية في خلافة عثمان أبو ذُؤَيب الهُذلي وكان شاعراً مشهوراً وهو الذي قال:

وإذا المنيةُ أنشبَتْ أظفارَها ألفيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

وتجلُّدي للشّامتينَ أُريهمُ أني لريْبِ الدهرِ لا أتضعْضَعُ[3]

خامساً: معركة ذات الصواري:

أصيب الروم بضربة حاسمة في إفريقية، وتعرضت سواحلهم للخطر بعد سيطرة الأسطول الإسلامي على سواحل المتوسط من ردوس حتى برقة، فجمع قسطنطين بن هرقل أسطولاً بناه الروم من قبل، فخرج بألف سفينة، لضرب المسلمين ضربة يثأر بها لخسارته المتوالية في البر، فأذن عثمان رضي الله عنه لصد العدوان، فأرسل معاوية مراكب الشام بقيادة بُسْر بن أرطاة، واجتمع مع عبد الله بن سعد بن أبي السرح في مراكب مصر، وكانت كلها تحت إمرته، ومجموعها مائتا سفينة فقط، وسار هذا الجيش الإسلامي، وفيه أشجع المجاهدين المسلمين ممن أبلوا في المعارك السابقة، فقد انتصر هؤلاء على الروم من قبل في معارك عديدة، فشوكة عدوهم في أنفسهم محطمة، لا يخشونه ولا يهابونه، على الرغم من قلة عدد سفنهم إذا قيست بعدد سفن عدوهم، خرج المسلمون إلى البحر وفي أذهانهم وقلوبهم إعزاز دين الله وكسر شوكة الروم، ولقد كان لهذه المعركة التاريخية أسباب منها:

(1) التاريخ الإسلامي (12/ 392).

(2) المصدر نفسه (12/ 392).

(3) تاريخ الإسلام للذهبي، عهد الخلفاء الراشدين، ص(359).

1 ـ الضربات القوية التي وجهها المسلمون إلى الروم في إفريقية.

2 ـ أصابة الروم في سواحلهم الشرقية والجنوبية بعد أن سيطر المسلمون بأسطولهم عليها.

3 ـ خشية الروم من أن يقوى أسطول المسلمين، فيفكروا في غزو القسطنطينية.

4 ـ أراد قسطنطين بن هرقل استرداد هيبة ملكه بعد الخسائر المتتالية براً، وعلى شواطئه في بلاد الشام ومصر وساحل برقة.

5 ـ كما أراد الروم خوض معركة ظنوا أنها مضمونة النتائج، كي تبقى لهم السيطرة في المتوسط، فيحافظوا على جزره، فينطلقوا منها للإغارة على شواطئ بلاد العرب.

6 ـ محاولة استرجاع الإسكندرية بسبب مكانتها عند الروم، وقد ثبت تاريخياً مكاتبة سكانها لقسطنطين بن هرقل ملك الروم.

هذه بعض أسباب معركة ذات الصواري[1].

أين وقعت هذه المعركة؟

وهذا السؤال لم يجد المؤرخون له جواباً موحداً، فالمراجع العربية لم تحدِّد مكانها، باستثناء مرجع واحد ـ على ما نعلم ـ صرح بالمكان بدقة، وآخر قال: اتجه الروم إليه.

- في (فتح مصر وأخبارها)[2]، وذكر الكتاب خطبة عبد الله بن سعد بن أبي سرح وقال: قد بلغني أن هرقل قد أقبل إليكم في ألف مركب... ولم يحدد مكان المعركة.
- (الطبري)[3]، في أخبار سنة 31هـ، ربط حدوث ذات الصواري بما أصاب المسلمون من الروم في إفريقية، وقال: فخرجوا في جمع لم يجتمع للروم مثله قط.

(1) ذات الصواري، شوقي أبو خليل، ص(60، 61).

(2) المصدر نفسه، ص(61).

(3) تاريخ الطبري (5/ 290).

obeikandl.com

- ولم يذكر (الكامل في التاريخ)[1]، مكان الموقعة أيضاً، ولكنه ربط سبب وقوعها بما أحرزه المسلمون من نصر في إفريقية بالذات.
- وفي (البداية والنهاية)[2]: فلما أصاب عبد الله بن سعد بن أبي سرح مَن أصاب من الفرنج والبربر ببلاد إفريقية، حميت الروم واجتمعت على قسطنطين بن هرقل، وساروا إلى المسلمين في جمع لهم لم ير مثله منذ كان الإسلام، خرجوا في خمسمائة مركب وقصدوا عبد الله بن سعد بن أبي سرح في أصحابه من المسلمين ببلاد المغرب.
- (تاريخ الأمم الإسلامية)[3]، ولم يذكر مكان الموقعة أيضاً[4]، ورجح الدكتور شوقي أبو خليل: أن المعركة كانت على شواطئ الإسكندرية وذلك للأسباب التالية:

- كتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) يذكر صراحة: غزوة ذات الصواري في البحر من ناحية الإسكندرية[5].
- تاريخ ابن خلدون يذكر[6]: ثم بعث - ابن أبي سرح - السرايا ودوَّخ البلاد فأطاعوا، وعاد إلى مصر، ولما أصاب ابن أبي السرح إفريقية ما أصاب، ورجع إلى مصر خرج قسطنطين بن هرقل غازياً إلى الإسكندرية في ستمائة مركب.
- ربطت المراجع العربية التي لم تحدد موقع المعركة، بين حدوث المعركة وبين ما خسره الروم في شمال إفريقية بالذات.
- الأسطول الرومي صاحب ماض عريق، فهو سيد المتوسط قبل ذات الصواري، فهو أجرأ على مهاجمة السواحل الإسلامية، ولذلك رجح الدكتور شوقي أبو خليل مجيء الأسطول الرومي إلى شواطىء الإسكندرية لاستعادتها

(1) الكامل في التاريخ (3/ 58) طبعة البابي الحلبي القاهرة.
(2) البداية والنهاية (7/ 163).
(3) تاريخ الأمم الإسلامية (2/ 29) للشيخ الخضري.
(4) ذات الصواري، ص(62).
(5) النجوم الزاهرة (1/ 80).
(6) تاريخ ابن خلدون (2/ 468).

obeikandl.com

بسبب مكانتها عند الروم ومكاتبة أهلها لملكهم السابق، وهو بذلك يقضي أيضاً على الأسطول الفتي في مهده، الذي شرع العرب في بنائه بمصر، فتبقى للروم السيطرة والسطوة في مياه المتوسط وجزره.

- المراجع الأجنبية تعرّف ذات الصواري بموقعة (فونيكة)، وفونيكة: هو ثغر يقع غرب مدينة الإسكندرية، بالقرب من مدينة مرسى مطروح فهي تحدِّد الموقع تماماً[1].

أحداث المعركة:

قال مالك بن أوس بن الحدثان: كنت معهم ـ في ذات الصواري ـ فالتقينا في البحر، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط، وكانت الريح علينا ـ أي لصالح مراكب الروم ـ فأرسينا ساعة، وأرسوا قريباً منَّا، وسكتت الريح عنا، قلنا للروم: الأمن بيننا وبينكم. قالوا: ذلك لكم، ولنا منكم[2]، كما طلب المسلمون من الروم: إن أحببتم ننزل إلى الساحل فنقتتل، حتى يُكتب لأحدنا النصر، وإن شئتم فالبحر. قال مالك بن أوس: فنخروا نخرة واحدة، وقالوا: بل الماء، الماء، الماء! وهذا يظهر لنا ثقة الروم بخبرتهم البحرية، وأملهم في النصر لممارستهم أحواله وفنونه، وقد مرنوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته وأنوائه، فطمعوا بالنصر فيه، خصوصاً أنهم يعلمون حداثة عهد المسلمين به[3].

بات الفريقان تلك الليلة في عرض البحر، وموقف المسلمين حرج، فقال القائد المسلم لصحبه: أشيروا عليَّ؟ فقالوا: انتظر الليلة بنا، لنرتب أمرنا، ونختبر عدونا، فبات المسلمون يصلُّون ويدعون الله ﷻ ويذكرونه، ويتهجدون، فكان لهم دوي كدوي النحل، على نغمات تلاطم الأمواج بالمراكب، أما الروم فباتوا يضربون النواقيس في سفنهم، وأصبح القوم، وأراد قسطنطين أن يسرع في القتال، ولكن عبد الله بن سعد بن أبي سرح لما فرغ من صلاته إماماً بالمسلمين للصبح، استشار رجال الرأي والمشورة عنده، فاتفق معهم على خطة رائعة: فقد اتفقوا على أن يجعلوا المعركة برية على الرغم من أنهم في عرض البحر، فكيف تم للمسلمين ذلك؟ أمر عبد الله جنده أن يقتربوا من

(1) ذات الصواري، شوقي أبو خليل ص(64).

(2) تاريخ الطبري (5/ 292).

(3) ذات الصواري، ص(66).

سفن أعدائهم فاقتربوا حتى لامست سفنهم سفن العدو، فنزل الفدائيون، أو ـ رجال الضفادع البشرية في عرفنا الحالي ـ إلى الماء، وربطوا السفن الإسلامية بسفن الروم، ربطوها بحبال متينة، فصار 1200 سفينة في عرض البحر، كل عشرة أو عشرين منها، متصلة مع بعضها فكأنها قطعة أرض ستجري عليها المعركة، وصفَّ عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن يعظهم ويأمرهم بتلاوة القرآن الكريم، خصوصاً سورة الأنفال، لما فيها من معاني الوحدة والثبات والصبر[1].

وبدأ الروم القتال، فهم في رأيهم قد ضمنوا النصر عندما قالوا: بل الماء، الماء، الماء! وانقضوا على سفن المسلمين بدافع الأمل بالنصر، مستهدفين توجيه ضربة أولى حاسمة يحطمون بها شوكة الأسطول الإسلامي، فنقض الروم صفوف المسلمين المحاذية لسفنهم، وصار القتال كيفما اتفق، وكان قاسياً على الطرفين، وسالت الدماء غزيرة، فاصطبغت بها صفحة الماء، فصار أحمر. وترامت الجثث في الماء وتساقطت فيه، وضربت الأمواج السفن حتى ألجأتها إلى الساحل، وقتل من المسلمين الكثير، وقتل من الروم ما لا يحصى، حتى وصف المؤرخ البيزنطي (ثيوفانس) هذه المعركة بأنها كانت يرموكاً ثانياً على الروم[2]، ووصفها الطبري بقوله: إن الدم كان غالباً على الماء في هذه المعركة[3]. حاول الروم أن يغرقوا سفينة القائد المسلم عبد الله بن أبي سرح، كي يبقى جند المسلمين دون قائد، فتقدمت من سفينته سفينة رومية، ألقت إلى سفينة عبد الله السلاسل لتسحبها، وتنفرد بها، ولكن علقمة بن يزيد الغطيفي أنقذ السفينة والقائد، بأن ألقى بنفسه على السلاسل وقطعها بسيفه[4].

وصمد المسلمون رغم كل شيء، وصبروا كعادتهم في معاركهم، فكتب الله ﷻ لهم النصر بما صبروا، واندحر ما تبقى من الأسطول الرومي، وكاد الأمير قسطنطين أن يقع أسيراً في أيدي المسلمين، كما ذكر ابن عبد الحكم، لكنه تمكن من الفرار لما رأى قواه تنهار وجثث جنده على سطح الماء تلقي بها الأمواج إلى الساحل، لقد رأى أسطوله

(1) ذات الصواري، ص(67).

(2) المصدر نفسه.

(3) تاريخ الطبري (5/ 293).

(4) ذات الصواري، ص(68).

الذي تأمل فيه خيراً ونصراً وإعادة كرامة، يغرق قطعة بعد قطعة، ففرّ مدبراً والجراحات في جسمه، والحسرة تأكل فؤاده، يجر خيبة وفشلاً، فوصل جزيرة صقلية[1]... وألقت به الريح هناك، فسأله أهله عن أمره، فأخبرهم فقالوا: شمت النصرانية، وأفنيت رجالها، لو دخل المسلمون لم نجد من يردهم[2] فقتلوه، وخلوا مَن كان معه في المراكب[3].

نتائج ذات الصواري:

1 ـ كانت ذات الصواري أول معركة حاسمة في البحر خاضها المسلمون، أظهر فيها الأسطول الفتي الصبر والإيمان، والجَلد والفكر السليم بما تفتق عنه الذهن الإسلامي من خطة جعلت المعركة صعبة على أعدائهم، فاستحال عليهم اختراق صفوف المسلمين بسهولة، كما استخدم المسلمون خطاطيف طويلة يجرون بها صواري وشُرُعَ سفن الأعداء، الأمر الذي انتهى بكارثة بالنسبة للروم.

2 ـ كانت ذات الصواري حداً فاصلاً في سياسة الروم إزاء المسلمين، فأدركوا فشل خططهم في استرداد هيبتهم، أو استرجاع مصر أو الشام، وانطلق المسلمون في عرض هذا البحر، الذي كان بحيرة رومية، وانتهى اسم (بحر الروم) إلى الأبد، واستطاع المسلمون فتح قبرص وكريت وكورسيكا وسردينيا وصقلية وجزر البليار، ووصلوا إلى جنوة ومرسيليا.

3 ـ قتل قسطنطين، فتولى ابن قسطنطين الرابع من بعده، وكان حدثاً صغير السن، مما جعل الظروف مواتية لقيام حملة بحرية وبرية إسلامية تستهدف عاصمة روما (القسطنطينية) فيما بعد.

4 ـ الإعداد الروحي قبل المعركة، أو ما يسمى بالتوجيه المعنوي في أيامنا هذه، له قيمته في تحقيق النصر، حيث تتجه القلوب إلى الله بصدق، فهذا المؤمن الذي بات ليله في تهجد وذكر، يستمد العون من الله، من عظمته وعزته، بعد أن هيأ الأسباب، يلقى الأعداء بروح عالية لا يهاب الموت، فالله أكبر من كل شيء، وهذه المعارك

(1) تاريخ ابن خلدون (2/ 468).

(2) المصدر نفسه.

(3) ذات الصواري، ص(68).

التي نصف أحداثها التاريخية، هي وصفة طبية نعرضها للتطبيق والنهج، لنستفيد منها في حياتنا، فحياة الصحابة ما هي إلا للقدوة، وسيرة للاتباع[1].

5 ـ أصبح البحر المتوسط بحيرة إسلامية، وصار الأسطول الإسلامي سيد مياه البحر المتوسط، وهذا الأسطول ليس للتسلط والقرصنة بل للدعوة إلى الله وكسر شوكة المشركين، ونشر الحضارة المنبثقة عن كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

6 ـ عكف المسلمون على دراسة علوم البحرية، وصناعة السفن، وكيفية تسليحها، وأسلوب القتال من فوقها، وعلوم الفلك المتصلة بتسييرها في البحار ومعرفة مواقعهم على المصورات البحرية المختلفة ـ فيما بعد ـ فعرفوا الأصطرلاب (البوصلة الفلكية) وطوروها إلى المدى الذي استفاد منه بعد ذلك البحَّارة الغربيون أمثال: كريستوف كولومبس، وأمريكو فيسبوشي في اكتشافاتهم[2].

7 ـ لقد كانت هذه المعركة مظهراً من مظاهر تفوق العقيدة الصحيحة الصلبة على الخبرة العسكرية، والتفوق في العَدد والعُدد، فلقد كان الروم هم أهل البحر منذ القدم، وقد مروا بتجارب طويلة في الحروب البحرية، بينما كان المسلمون حديثي عهد بركوب البحر والقتال البحري، ولكن الله تعالى أعلى المسلمين عليهم برغم التفوق المذكور، لأنه سبحانه قد سخَّر أولئك المؤمنين لنشر دينه وإعلاء كلمته في الأرض، وإن مما يُشاد به في هذه المعركة قوة قائدها عبد الله بن سعد بن أبي سرح ورباطة جأشه، ومقدرته الجيدة على إدارة الحروب، وهي بعد ذلك لون من ألوان بسالة المسلمين واستقتالهم في الحروب بأنفسهم في سبيل إعزاز دينهم ورفع شأن دولتهم[3].

سادساً: أهم الدروس والعبر والفوائد في فتوحات عثمان رضي الله عنه:

1 ـ تحقيق وعد الله للمؤمنين:

قال ابن كثير في حديثه عن عثمان بن عفان رضي الله عنه: . . . ففتح الله على يديه كثيراً من

(1) ذات الصواري، ص(71، 72).

(2) المصدر نفسه، ص(76).

(3) التاريخ الإسلامي (12/407).

الأقاليم والأمصار، وتوسعت المملكة الإسلامية، وامتدت الدولة المحمدية، وبلغت الرسالة المصطفوية في مشارق الأرض ومغاربها، وظهر للناس مصداق قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: 55] . وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: 33] ، وقوله ﷺ: **«إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»**[1]. وهذا كله تحقق وقوعه وتأكد وتوطد في زمان عثمان رضي الله عنه[2].

2 ـ التطور في فنون الحرب والسياسة:

كانت الحروب تنشأ بين الشعوب من أجل قطعة من الأرض يراد تملكها، أو بسبب اعتداء يقع على بلد أو قبيلة، ولكنها في عهد النبوة والعهد الراشدي أصبحت بسبب المبادئ، فالمسلمون يريدون أن تكون عقيدتهم هي السائدة والمهيمنة في الأرض، فاصطدمت بعقائد فاسدة ومنحرفة كعقائد المشركين والمجوس، على أن هذا لم يكن كل شيء في التطور الحربي، بل نجد لوناً جديداً آخر وهو ما كان يعرضه المجاهدون المسلمون على أعدائهم من: الإسلام أو الجزية أو المناجزة، ونتج عن تلك الفتوح سياسة فذة أرضت جميع الشعوب، إلا مَن كان في قلبه حقد على العدل والمساواة ممَّن كانت تحدثهم نفوسهم بالفتن والعصيان، وهؤلاء اضطروا المسلمين أحياناً إلى الشدة معهم والتنكيل بهم[3].

3 ـ بدء التجنيد الإلزامي في عهد عمر واستمراره في عهد عثمان رضي الله عنهما:

كانت معركة القادسية من أسباب اتخاذ الفاروق لقرار التجنيد الإلزامي، فقد أمر عماله على الأقاليم بإحضار كل فارس ذي نجدة أو رأي أو فرس أو سلاح، فإن جاء

(1) مسلم، كتاب الفتن، رقم (2918، 2919).

(2) البداية والنهاية (7/ 216).

(3) عصر الخلفاء الراشدين، د. عبد الحميد بخيت، ص(216).

طائعاً وإلا حشروه حشراً، وقادوه مقاداً، واستعجلهم في ذلك بحزمه المشهور قائلاً: لا تدعوا أحداً إلا وجهتموه إليّ، والعَجَل العَجَل[1]، وكان عمر يفكر في التجنيد الإلزامي الموقوف للجهاد، فلما دوّن الديوان، ورتب للمسلمين أرزاقهم السنوية، خرجت فكرته إلى حيّز الوجود، واقترنت نشأة الديوان بنشأة التجنيد النظامي الرسمي، وحُدّدت للجنود النظاميين عطاياهم ورواتبهم من بيت مال المسلمين، وعندما أذن عثمان لمعاوية بالغزو بحراً أمره أن يخيّر الناس ولا يكرههم، حتى لا يذهب أحد إلى هذا الضرب من الغزو إلا طائعاً مختاراً، أما التجنيد براً لإتمام حركة الفتوح، فقلَّ ظل في عهده إلزامياً على أصحاب الرواتب والأرزاق من الجنود النظاميين[2].

4 ـ اهتمام عثمان بحدود الدولة الإسلامية:

ترتب على توسع الدولة الإسلامية في عهد عثمان رضي الله عنه الاستمرار في سياسة تحصين الثغور للحفاظ على حدود الدولة الإسلامية من مهاجمة الأعداء، سواء كان ذلك بشحنها بالجند المرابطين، أو بناء الحاميات الدفاعية المختلفة بها، فكان أول كتاب كتبه عثمان بن عفان رضي الله عنه في خلافته لأمر الأجناد في الثغور لحماية حدود الدولة الإسلامية قوله: أما بعد، فإنكم حماة المسلمين وذادتهم، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا، بل كان على ملإ منا، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل، فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم، فانظروا كيف تكونون، فإني أنظر فيما أكرمني الله النظر فيه، والقيام عليه[3].

وتسهيلاً وتيسيراً للعملية الإدارية، جمع الخليفة عثمان رضي الله عنه لمعاوية بن أبي سفيان الشام والجزيرة، وولاية ثغورهما في إدارة موحدة، وكلفه بغزو ثغر شمشاط بنفسه أو أن يولي ذلك من يرتضيه من كبار قواده من أصحاب الخبرة والشجاعة الراغبين في الجهاد والحرب مع الروم[4]، كما كتب أيضاً لمعاوية بن أبي سفيان أن يلزم ثغر أنطاكية قوماً وأن يقطعهم القطائع به ففعل ذلك[5].

---

(1) إتمام الوفاء، ص(70).
(2) النظم الإسلامية، صبحي الصالح، ص(489).
(3) تاريخ الطبري (5/ 244).
(4) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (2/ 466).
(5) فتوح البلدان، البلاذري (1/ 175).

وكان رضي الله عنه يهتم بأمر الثغور ويبعث من يستعلم له عن بعضها[1]، وعندما غزا معاوية بن أبي سفيان عمورية وجد الحصون التي فيها بين ثغر أنطاكية وثغر طرسوس خاليةً من مقاتلة الروم، فجعل به جماعة من جند الشام والجزيرة وقنسرين، وأمرهم بالوقوف عندها لتحمي ظهره أثناء انسحابه وانصرافه من غزواته، ثم أغزى بعد ذلك بسنة أو سنتين يزيد بن الحر العبسي[2] الصائفة، وأمره بفعل الشيء نفسه، وكانت ولاة الصوائف والشواتي إذا دخلوا بلاد الروم، فعلوا ذلك حيث يخلفون بها جنداً كثيفاً إلى خروجهم من أرض العدو[3]، وقد أبلى معاوية بن أبي سفيان في أثناء إدارته للسواحل الشامية وفي تحصينها بلاءً حسناً[4].

وكتب عثمان رضي الله عنه لعبد الله بن أبي السرح يأمره بالحفاظ على ثغر الإسكندرية بإلزام الجند المرابطة به، وأن يجري عليهم أرزاقهم، وأن يعقب بين المرابطين من أجل أنه لا يضر بهم التجمير. فقال له: قد علمت كيف كان همُّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بالإسكندرية، وقد نقضت الروم مرتين، فألزم الإسكندرية مرابطيها ثم أجرى عليهم أرزاقهم وأعقب بينهم في كل ستة أشهر[5].

وكان من عادة قادة الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا تقدموا في الفتوح واستولوا على حصون العدو، قاموا بترميمها كمن سبقهم من القادة ثم إسكانها جند المسلمين من المرابطين بالإضافة إلى استحداثهم لتحصينات دفاعية جديدة، فمن تلك الحصون التي قام بترميمها معاوية بن أبي سفيان حصون الفرات وهي سميساط[6]، وملطية[7]، وشمشاط وكمخ[8]، وقاليقلا[9]، وهي حصون استولى عليها المسلمون عند فتحهم

(1) الخراج وصناعة الكتابة، لابن قدامة، ص(413).
(2) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (2/ 467).
(3) المصدر نفسه (2/ 467).
(4) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (2/ 467).
(5) فتوح مصر، ص(192).
(6) سميساط: مدينة على شاطىء الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات.
(7) ملطية: من بلاد الروم مشهورة مذكورة تناخم الشام وهي للمسلمين.
(8) كمخ: مدينة بالروم بينها وبين أرزنجان يوم واحد. معجم البلدان (4/ 479).
(9) قليقلا: بأرمينية العظمى من نواحي خلاط ثم من نواحي منازجرد.

لأرمينية في عهد عثمان رضي الله عنه وقاموا بترميمها وإسكانها الجند[1].

ففي قاليقلا قام القائد حبيب بن مسلمة الفهري بإسكان ألفي رجل، وأقطعهم بها القطائع وجعلهم مرابطين بها[2]، وقد كلف الخليفة عثمان رضي الله عنه القائد حبيب بن مسلمة بأن يقيم بثغور الشام والجزيرة لإدارتها وحمايتها[3]، وعندما فتح البراء بن عازب رضي الله عنه ثغر قزوين رتَّب فيهم خمسمائة رجل من جند المسلمين، وعيّن عليهم قائداً وأقطعهم أرضاً وضياعاً لا حقّ فيها لأحد، فعمَّروا وأجروا أنهارها وحفروا آبارها[4]، وحين فتح سعيد بن العاص طميسة[5] جعل بها مرابطة من ألفي رجل وعيّن عليهم قائداً[6]، إلى غير ذلك من التحصينات التي أنشئت بالثغور في إدارة الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه والتي كانت تشحن بالجند لحماية حدود الدولة الإسلامية[7].

وعني الخليفة عثمان رضي الله عنه في إدارته بأمر الصوائف والشواتي حيث عمل على تسييرها وتسهيل أمرها في كل عام، وكان يتولاها كبار قادته وولاته أمثال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه الذي بنى جسراً بمنبج[8]، لمرور الصوائف عليه فلم يكن قبل إذ. وقد فوَّض الخليفة عثمان رضي الله عنه إلى واليه معاوية في غزو الروم وتولي قيادة الصائفة مَن يختاره، فولى معاوية سفيان بن عوف الذي لم يزل على الصوائف في عهد عثمان رضي الله عنه، ولم تقتصر حملات الصوائف والشواتي على الحدود البرية، بل شملت كذلك البحر في عهد عثمان رضي الله عنه[9].

5 ـ قسمة الغنائم بين أهل الشام والعراق:

استطاع حبيب بن مسلمة أن يهزم الروم في أرمينية قبل وصول مدد الوليد بن عقبة

(1) من تاريخ التحصينات، محمد عبد الهادي، ص(434).
(2) فتوح البلدان (1/ 234).
(3) فتوح البلدان (1/ 241).
(4) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (2/ 469).
(5) طميسة: بلدة من سهول طبرستان.
(6) الإدارة العسكرية (2/ 469).
(7) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (2/ 470).
(8) منبج: بلد قديم في الشام.
(9) الإدارة العسكرية (2/ 470).

من الكوفة، وغنم أهل الشام غنائم كثيرة، وبعد وصول مدد أهل الكوفة اختلفوا في أمر الغنائم، مما جعل حبيباً يكتب بذلك إلى معاوية، فكتب معاوية إلى الخليفة عثمان رضي الله عنه يخبره بذلك، فحكم عثمان بن عفان رضي الله عنه على أهل الشام أن يقاسموا أهل العراق ما غنموا من تلك الغنائم، فلَّما ورد كتاب الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه حبيب بن مسلمة قرأه على جند أهل الشام فقالوا: السمع والطاعة لأمير المؤمنين ثم إنهم قاسموا أهل العراق وغنموا[1].

6 ـ الحرص على وحدة الكلمة في مواجهة العدو:

في عهد عثمان رضي الله عنه استخلف عبد الله بن عامر على خراسان قيس بن الهيثم السلمي، حيث خرج منها فجمع (قارن) جمعاً كثيراً من ناحية الطبسين وأهل بادغيس وهراة وقسهتان، فأقبل في أربعين ألفاً، فاستشار قيس بن الهيثم عبد الله بن خازم قائلاً له: ما ترى؟ قال: أرى أن تخلي البلاد فإني أميرها، ومعي عهد من ابن عامر، إذا كانت حرب بخراسان فأنا أميرها ـ وأخرج كتاباً قد افتعله عمداً ـ فكره قيس مشاغبته وخلاه والبلاد[2]. أحب قيس بن الهيثم بفعله هذا أن يجمع الكلمة بدلاً من تفريقها حتى لا يحدث الفشل والوهن للجنود، فتكون الهزيمة وقد تم النصر للمسلمين على الأعداء بحمد الله[3].

7 ـ شرط ما يحتاج إليه الجنود في بنود الصلح:

في عهد عثمان رضي الله عنه زادت الفتوحات الإسلامية اتساعاً مما جعل قادته يشترطون في بعض عهودهم للصلح بأن تكون من المواشي والطعام والشراب لإعداد ما يحتاج إليه الجيش من زاد وتموين وميرة حتى تساعدهم في فتوحاتهم، فلا يتكلفون عناء حمل الميرة من القيادة المركزية ويستغنون عن طلبها ليكونوا على الحرب أوفر، وعلى منازلة العدو أقدر[4].

---

(1) الفتوح، ابن أعثم (1/ 341، 342).
(2) الإدارة العسكرية (1/ 189) نقلاً عن تاريخ الطبري.
(3) المصدر نفسه (1/ 189).
(4) تاريخ اليعقوبي (2/ 166، 167).

8 ـ جمع المعلومات عن الأعداء:

استمرت الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان رضي الله عنه يهتم بالأخبار ويتقصاها بنفسه[1]، وسار قادته على منوال مَن سبقهم من القادة بالاعتناء بأمر العيون وتقصي أخبار العدو[2]، كما أنهم جعلوها شرطاً من شروط المعاهدات بينهم وبين المعاهدين حيث طلبوا منه بأن ينصحوا وينذروا المسلمين بسير عدوهم إليهم ومعاونتهم بأن يكونوا عليهم جواسيس، وإبلاغ المسلمين بتحركاتهم[3].

9 ـ عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي من قادة الفتوح في عهد عثمان:

كان عبد الرحمن قائداً عَقَدياً من الطراز الرفيع، وكان لتمسُّكه الشديد بعقيدته موضع ثقة رؤسائه ومرؤوسيه على حد سواء، بالإضافة إلى شجاعته وإقدامه وعلمه بأمور الدين، لذلك بقي قائداً لمنطقة (باب الأبواب) ووالياً عليها منذ وفاة سُراقة بن عمرو حتى استشهد، لم يعزل من منصبه على الرغم من تبدل الخلفاء وتغير الولاة والقادة في الكوفة مرجع عبد الرحمن المباشر، وكان عبد الرحمن يؤمن بوسائل حرب الفروسية الشريفة، فلا يخون ولا يغدر ولا يضرب من الخلف[4]، وكان لسيرته الحسنة في منطقة (باب الأبواب) وجنوب بحر الخزر وغربه أثر أيُّ أثر في استقرار الأمور واستتباب الأمن والنظام في تلك الربوع، فأصبحت تلك المناطق قاعدة أمامية لنشر الإسلام والفتح شمالاً، فثبت الإسلام في تلك الأصقاع النائية، في وجه مختلف المحن والتيارات منذ أربعة عشر قرناً حتى اليوم[5].

ومن مواقفه الخالدة التي سطرها على صفحات التاريخ، عندما خرج بالناس حتى قطع (الباب) فقال له الملك شهريار: ماذا تريد أن تصنع؟ قال: أريد (بَلَنجَر) والترك. قال: إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون (الباب)، قال عبد الرحمن: لكنَّا لا نرضى

(1) الطبقات (3/ 59).
(2) الإدارة العسكرية (1/ 403).
(3) الإدارة العسكرية (1/ 403).
(4) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص(155).
(5) المصدر نفسه، ص(156).

منهم ذلك حتى نأتيهم في ديارهم. وتالله إن معنا لأقواماً لو يأذن أميرنا في الإمعان لبلغت فيهم (الرَّدْمَ)[1]، قال الملك: وما هو؟ فأجابه عبد الرحمن: أقوام صحبوا رسول الله ﷺ، ودخلوا في هذا الأمر بنية، كانوا أصحاب حياء وتكرم في الجاهلية، فازداد حياؤهم وتكرمهم، فلا يزال هذا الأمر دائماً لهم، ولا يزال النصر معهم حتى يغيِّرهم مَنْ يغلبهم، وحتى يلفتوا عن حالهم[2]، وقد غزا عبد الرحمن (بلنجر) غزاة في زمن عمر بن الخطاب، فقال الترك: ما اجترأ علينا إلا ومعه الملائكة تمنعهم من الموت، فهرب منه الترك وتحصنوا فرجع بالغنيمة والظفر، بعد أن بلغه خيله (البيضاء) على رأس مائتي فرسخ من (بلنجر)، وعادوا ولم يقتل منهم أحد[3].

ومن الواضح أن معنويات المسلمين كانت عالية جداً، لتتابع انتصاراتهم، ولتمسكهم بدينهم، كما أن معنويات الأمم التي حاربوها كانت منهارة، لأن المسلمين غلبوا الأمم التي قاتلوها، لذلك هرب الأتراك من المسلمين وتحصنوا، فلم يحدث قتال فعلي في هذه الغزوة، فلم يسقط من المسلمين شهيدٌ[4]، لقد كان عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي على جانب عظيم من التقوى والخلق الكريم، وكان تصرفه مع المغلوبين له الأثر في استتباب الأمن واستقرار النظام وانتشار الإسلام، فقد كان وفياً غاية الوفاء، أميناً غاية الأمانة، فقد أرسل ملك (الباب) رسولاً إلى ملك (الصين) مع هدايا ـ وذلك قبل أن يفتح المسلمون بلاده ـ فعاد رسوله من رحلته بعد فتح المسلمين لتلك البلاد، وكان مع الرسول العائد هدايا من ملك الصين، بينها ياقوتة حمراء ثمينة، وكان ملك (الباب) حين عودة رسوله في مجلس عبد الرحمن، فتناول الملك من رسوله تلك الياقوتة ثم ناولها عبد الرحمن، ولكن عبد الرحمن ردها فوراً إلى الملك بعد أن نظر إليها، فهتف الملك متأثراً وقال: «لَهذه ـ يعنى الياقوتة ـ خيرٌ من هذا البلد ـ أي باب الأبواب ـ وأيم الله لأنتم أحب إليَّ حكاماً من آل كسرى، فلو كنتُ في سلطانهم، ثم بلغهم خبرها،

(1) الردم: قيل سد الصين.

(2) الكامل لابن الأثير (3/ 29 ـ 30)؛ تاريخ الطبري (5/ 146).

(3) تاريخ الطبري (5/ 146).

(4) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص(150).

لانتزعوها مني!!! وايم الله، لا يقوم لكم شيء ما وفيتم وَوَفى ملككم الأكبر»[1].

كان من حق ملك مدينة (الباب) وما حولها أن يعجب أشدَّ العجب ويدهش أشد الدهشة بأمانة القائد المسلم ووفائه، فقد عاش هذا الملك عمره كله في دوامة عنيفة من الخيانة وفي جو مشحون بالغدر، فلما رأى أمانة المسلمين المثالية ووفاءهم المطلق، لم يتمالك نفسه أن نسي ملكه المضاع وملوكه الغابرين، فعبّر عن شعوره بكلمات خارجة من أعماق قلبه إعجاباً بما يرى ويسمع من أمانة ووفاء[2].

كان عبد الرحمن يعلم أن الاستيلاء على الياقوتة التي لا تقدر بثمن ليس من حقه شخصياً ولا من حق بيت مال المسلمين، فكانت تلك الياقوتة والتراب عنده سيان، فقد كان عبد الرحمن كريماً مضيافاً، شهماً غيوراً، ورعاً تقياً، متفقهاً في الدين، لا يملك شيئاً من حطام الدنيا على الرغم من أنه قضى أكثر عمره غازياً ووالياً، وقد استشهد في عام اثنتين وثلاثين للهجرة في منطقة (بلنجر)[3]، ويعتبر عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي من قادة الفتح في عهد عثمان رضي الله عنه، وقد كانت له صحبة، وقد أسلم متأخراً.

10 ـ سلمان بن ربيعة الباهلي من قادة الفتوح في عهد عثمان:

كان هذا الصحابي الجليل أول مَن قضى بالكوفة، فقد بعثه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاضياً بالكوفة قبل شُرَيح، فلما ولي سعد بن أبي وقاص الولاية الثانية في أيام عثمان بن عفان استقضى سلمان أيضاً، وقد شهد القادسية فقضى بها، ثم قضى بـ (المدائن)، وليس كل إنسان يصلح للقضاء ـ خاصة في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ أو يصلح لأهل الكوفة التي كانت حينذاك تعجّ برجالات العرب وكبار الصحابة من جهة، وبأخلاط شتى من أمم وأقوام وقبائل مختلفة من جهة أخرى، وهذا دليل على غزارة علم سلمان بالدين الحنيف واستقامته وعدله وتدينه، وتمتعه بعقلية راجحة متزنة، وشخصية قوية نافذة، مما جعله موضع ثقة الناس جميعاً، كما أنه تولى المقاسم في فتح (المدائن) وفي غزوة (الباب)

(1) تاريخ الطبري (5/ 148).
(2) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص(154).
(3) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، محمود شيت خطاب، ص(154).

أيضاً، مما يدل على تمتعه بالنزاهة المطلقة، كان رجلاً صالحاً يحج كل سنة، روى عنه بعض كبار التابعين، وكان مثالاً نادراً للخلق القويم: كريماً مضيافاً شهماً غيوراً وفياً صادقاً محباً للخير، يحب للناس ما يحبه لنفسه، ولم يترك حين استشهاده ديناراً ولا داراً، بعد أن عاش كل حياته مجاهداً وقاضياً وأميراً.

وقد كان متفوقاً على زملائه في الصفات القيادية، فعندما بعث عثمان بن عفان رضي الله عنه، كتاباً إلى الوليد بن عقبة عامله على الكوفة، يأمره به أن يرسل نجدة من أهل الكوفة إلى أهل الشام بقيادة رجل ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه، ولم يتردد الوليد لحظة في اختيار سلمان لهذا الواجب البالغ الخطورة، فاختاره من بين عدد كبير من القادة أصحاب الفتوح والأيام الذين كانوا معه أو كانوا في الكوفة، ذلك لأن سلمان كان حقاً مثالاً رائعاً من أمثلة النجدة والبأس والشجاعة بالإضافة إلى ورعه وتقواه، لقد كان شجاعاً مقداماً سريعاً إلى النجدة خبيراً بفنون الحرب لممارسته الطويلة لها، وله تجارب طويلة في قيادة الرجال، وكان: أبصر بالمضارب من الجازر بمفاصل الجزور[1]، مما يدل على أنه كان من الرماة الماهرين، وكان ماهراً في الفروسية، خبيراً بالخيل، وكان يلي الخيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، قد أعد في كل مصر من أمصار المسلمين خيلاً كثيرة معدة للجهاد، وكان في الكوفة أربعة آلاف فرس، فإذا داهم العدو الثغور الإسلامية، ركبها المسلمون المجاهدون وساروا مجدّين لقتاله[2]، وكان سلمان يتولى الخيل بالكوفة[3].

وكان شجاعاً في فروسية، قال سلمان: «قتلت بسيفي هذا مائة مستلئم[4]، كلهم يعبد غير الله، ما قتلت رجلاً منهم صبراً».

إنه لا يقتل حتى عدوه الكافر بالله ـ الذي يعبد غير الله ـ لا يقتله في ساحة القتال

(1) تهذيب ابن عساكر (6/ 210)؛ تاريخ الطبري (5/ 309).

(2) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص(169).

(3) أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير، (2/ 327).

(4) المستلئم: الجندي الذي لبس عدته وأصبح جاهزاً للقتال.

صبراً، بل يُنذره ثم يصاوله مصاولة الأنداد، ويقتله عندما يجد فرصة لقتله، فلا يكون هذا القتل غدراً، ولا يكون صبراً[1]، لقد كان مثالاً للمجاهد الصادق المحتسب، الذي يجاهد لتكون كلمة الله هي العليا، لا يبالي على أي جنب كان في الله مصرعه، وأخيراً سقط مضرجاً بدمائه ولم يسقط السيف من يده، إنه قدوة حسنة لكل جندي ولكل قائد في ماضيه المشرّف المجيد، وفي أعماله الفذة الخالدة[2]، هذا وقد استشهد سنة اثنتين وثلاثين هجرية أو سنة ثلاث وثلاثين هجرية[3]، رضي اللّه عن الفقيه المحدث، القاضي العادل، الأمين النزيه، الإداري الحازم، الفارس المغوار، البطل الشهيد، القائد الفاتح سلمان بن ربيعة الباهلي[4].

11 ـ حبيب بن مَسلمة الفهري من قادة الفتوح في عهد عثمان:

كان حبيب على صغر سنه يتنقل من ساحة عمليات إلى ساحة عمليات أخرى، فاتحاً مرة، ومدداً مرة أخرى، وكان النصر حليفه في كل معركة خاضها، قدم على النبي ﷺ وهو بالمدينة غازياً، وكان يومئذ صغيراً، وشهد غزوة تبوك تحت لواء الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، وبهذه الغزوة بدأ جهاده وهو يناهز العشرين من عمره القصير[5]، وحين رآه عمر بن الخطاب صلب العود وقوي البدن، جربه تجربة عملية ليرى أي نوع من الرجال هو، فعرض عليه خزائن المال وخزائن السلاح، فاختار السلاح وعفّ عن المال، وتفضيل السلاح على المال من مزايا القائد الذي يتغلغل حب الجندية في أعماق نفسه، وقد تولى قيادة كردوس في معركة (اليرموك) الحاسمة وهو ابن أربع وعشرين سنة، مما يدل على ظهور سماته القيادية مبكراً وهو في ريعان الشباب، وولّاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه عجم (الجزيرة) إدارياً وقائداً، وليس من السهل أن يولي عمر كل إنسان مثل هذا المنصب الرفيع، لأن عمر كان يلتزم بصفات معينة في

(1) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، (2/ 633).
(2) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص(170).
(3) المصدر نفسه، ص(171).
(4) المصدر نفسه، ص(172).
(5) كان عمره يوم تولى منصب قيادة منطقة الجزيرة وإدارتها 28 سنة.

القائد قلَّ أن تتوفر في الرجال، وأخيراً ولّاه عمر بن الخطاب ﷺ (أرمينية) و(أذربيجان)، وهي مناطق شاسعة وقيادة مهمة للغاية، نظراً لشدة شكيمة أهلها ولبعدها عن قواعد المسلمين الرئيسة والمتقدمة[1]، ومارس القيادة والإدارة في عهد عثمان ﷺ، ولقد كان شجاعاً غاية الشجاعة، مقداماً غاية الإقدام: لمَّا توجه لقتال (الموريان) كان في ستة آلاف، وكان (الموريان) في سبعين ألفاً، فقال حبيب لمن معه: إن يصبروا وتصبروا فأنتم أولى بالله منهم، وإن يصبروا وتجزعوا فإن الله مع الصابرين، ولقيهم ليلاً، فقال: اللهم جَلِّ لنا قمرها، واحبس عنا مطرها، واحقن دماء أصحابي، واكتبهم شهداء، ففتح الله له[2].

فكان من أسباب انتصاره على عدوه بالإضافة إلى عامل الإيمان هو الهجوم الليلي الذي باغت به العدو، وجعل معنوياته تنهار ثم يولي الأدبار[3]، وكان مثالاً شخصياً حياً لرجاله من الشجاعة والإقدام، فقد كان يقود رجاله من الأمام. يقول لهم: اتبعوني، ولا يبقى في الخطوط الخلفية مؤثراً السلامة والعافية، وحين عزم أن يُبيِّت (الموريان) سمعته امرأته يذكر ذلك، فقالت له: وأين الموعد؟ فقال: سرادق موريان أو الجنة. وبَيّت حبيب عدوه وقتل مَن صادفه في طريقه؛ فلما أتى السرادق، وجد امرأته قد سبقته إليها[4]؛ فلم يكن وحده بطلاً يضرب لرجاله بأعماله البطولية أروع الأمثال، بل كانت امرأته بطلة يقتفي الأبطال آثارها في التضحية والفداء[5].

وكان يستشير رجاله ويتقبل مشورتهم، وكان لا يستأثر بالرأي دونهم، بل كان يتنصّت ليتلقف آراء رجاله، ويطبق ما رآه حسناً، وينفذ ما يجده صواباً، بالإضافة إلى عقد مؤتمرات الشورى قبل المعارك، وفي أثنائها وبعدها، فقد سمع يوماً أحد رجاله يقول: لو كنت ممن يسمع حبيب مشورته، لأشرت عليه بأمر يجعل الله فيه لنا نصراً

(1) تولى (أرمينية) و(أذربيجان) وعمره ثلاث وثلاثون سنة.
(2) تهذيب ابن عساكر (4/ 37).
(3) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص(189).
(4) المصدر نفسه.
(5) المصدر نفسه.

وفرجاً إن شاء الله، واستمع حبيب لقوله، فقال أصحابه: وما مشورتك؟ فقال: أشير عليه أن ينادي بالخيول فيقدمها، ثم يرتحل بعسكره فيتبع خيله، وتوافيه الخيل في جوف الليل وينشب القتال، ويأتيهم حبيب بسواد عسكره مع الفجر، فيظنون أن المدد قد جاءهم، فيرعبهم الله، فيهزمهم بالرعب[1]، ونادى حبيب بالخيول، فوجهها بليلة مقمرة مطيرة، ثم ارتحل وراء خيوله، ولكنه عاد إلى عدوه في السحر، فحمل وحمل أصحابه، فانهزم العدو وأصابوا غنائم كثيرة[2].

كان حبيب صاحب كيد، يفكر ويُقدِّر ثم يستشير رجاله ويستطلع ساحة القتال، ويحصل على المعلومات المستفيضة عن العدو، ثم يبني بعد ذلك خطته العسكرية على هدى وبصيرة.

إن أعمال حبيب الجهادية خطط مدبرة، ولم تكن خططاً ارتجالية، لذلك رافق النصر أعلامه في أخطر ساحات القتال في الفتح، وبالإضافة إلى تلك المزايا أو قبلها، كان حبيب مؤمناً حقاً صادق الإيمان، وكان إذا لقي عدواً أو ناهض حصناً يحب أن يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[3].

لقد كان حبيب قائداً فذاً، جمع مزايا القائد الفذ: الطبع الموهب، والعلم المكتسب، والتجربة العمليّة[4]، والثقة بالله القوي العزيز.

إن حبيب بن مسلمة أسدى للفتح الإسلامي خدمات لا تُنسى، فهو بدون شك من ألمع قادة الفتوح في عهد عثمان رضي الله عنه، وقد توفي هذا القائد الفذ سنة اثنتين وأربعين هجرية، فكان عمره يوم توفي أربعاً وخمسين سنة قمرية، وكانت حياته قليلة في تعداد السنوات، كثيرة في تعداد جلائل الأعمال، قصيرة في عمر الزمن، باقية آثارها على مرّ الدهور وتوالي السنين والقرون، رضي الله عن الصحابي الجليل، الإداري الحازم، السياسيّ، المحنك، القائد الفاتح، حبيب بن مسلمة الفهري[5].

---

(1) تهذيب ابن عساكر (4/ 37).
(2) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص(190).
(3) تهذيب ابن عساكر (4/ 37).
(4) قادة الفتح الإسلامي في أرمينية، ص(192).
(5) المصدر نفسه، ص(187).

المبحث الرابع

أعظم مفاخر عثمان جمع الأمة على مصحف واحد

أولاً: المراحل التي مرّت بها كتابة القرآن الكريم:

1 ـ المرحلة الأولى في العهد النبوي:

حيث ثبت بالدليل القاطع، أن رسول الله ﷺ، كان يأمر بكتابة القرآن الذي ينزل عليه، وثبت أنه كان له كاتب أو كُتَّابٌ يكتبون الوحي، حتى شُهر زيد بن ثابت بلقب (كاتب النبي ﷺ لاختصاصه بكتابة الوحي). وبوّب البخاري في كتاب (فضائل القرآن) (باب كتّاب النبي ﷺ) وذكر في حديثين:

الأول: أن أبا بكر رضي الله عنه قال لزيد: (إنك كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ)[1].

والثاني: عن البراء قال: لما نزلت ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ [النساء: 95] قال النبي ﷺ: «ادعُ لي زيداً وليجيء باللوح والدواة والكتف، أو الكتف والدواة»[2]. وكان النبي ﷺ يكتب القرآن في مكة أيضاً قبل الهجرة، وممن كتب له عبد الله بن سعد بن أبي السرح ثم ارتد، ثم أسلم عام الفتح، وله في ذلك قصة مشهورة ـ قد ذكرتها ـ والمعروف أن الخلفاء الراشدين الأربعة كانوا كتبة، فلعلهم كانوا يكتبون القرآن في مكة، ومما يدل على أن القرآن كان مكتوباً في مكة قصة إسلام عمر بن الخطاب ودخوله على أخته، وبيدها صحيفة فيها سورة طه، وقد أعلم الله تعالى في القرآن الكريم بأنه ـ أي القرآن ـ مجموع في الصحف في قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ [البيّنة: 2].

وقد توفي رسول الله ﷺ، والقرآن كله مكتوب، لكنه غير مجموع في موضع واحد. وكان مكتوباً على العُسب واللخّاف ومحفوظاً في صدور الرجال، ومع حفظه في الصحف وفي الصدور، كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ، كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه[3]. ويحتمل أن النبي ﷺ لم يجمع القرآن في مصحف، لما كان

(1) البخاري، كتاب فضائل القرآن رقم (4986).

(2) البخاري، كتاب تفسير القرآن رقم (4593).

(3) البخاري، كتاب فضائل القرآن رقم (4998).

يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته ﷺ، ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك، وفاء لوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة المحمدية[1].

2 ـ المرحلة الثانية: في عهد أبي بكر رضي الله عنه:

كانت من ضمن شهداء المسلمين في حرب اليمامة كثير من حفظة القرآن، وقد نتج عن ذلك أن قام أبو بكر رضي الله عنه بمشورة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بجمع القرآن، حيث جمع من الرقاع والعظام والعسف ومن صدور الرجال[2]، وأسند الصدِّيق هذا العمل العظيم إلى الصحابي الجليل زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، يروي زيد بن ثابت رضي الله عنه فيقول: بعث إليّ أبو بكر رضي الله عنه لمقتل أهل اليمامة[3]، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر[4] يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن[5] كلها فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ[6]؟!! فقال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر عمر، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: وإنك رجل شاب عاقل، ولا نتهمك[7]، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه[8].

قال زيد: فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل عليّ مما كلفني به من جمع القرآن، فتتبعت القرآن من العسب[9]، واللخاف[10]، وصدور الرجال والرقاع، والأكتاف[11]. قال: حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها

(1) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي، ص(240) نقلاً عن فتح الباري (9/ 12).
(2) حروب الردة وبناء الدولة الإسلامية، أحمد سعيد، ص(145).
(3) يعني وقعة يوم اليمامة ضد مسيلمة الكذاب وأعوانه.
(4) استحر: كثر واشتد.
(5) أي في الأماكن التي يقع فيها القتال مع الكفار.
(6) يحتمل أن يكون إنما لم يجمع القرآن في المصحف.
(7) هذه الصفات التي جعلت زيداً يتقدم على غيره في هذا العمل.
(8) أي: من الأشياء التي عندي وعند غيرك.
(9) العسب: هو جريد النخيل.
(10) اللخاف: جمع لخفة: وهي صفائح الحجارة.
(11) الرقاع: جمع رقعة وهي قطع الجلود، الأكتاف: جمع كتف وهو العظم الذي للبعير أو الشاة.

مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: 128] حتى خاتمة براءة وكانت الصحف عند أبي بكر في حياته حتى توفاه الله، ثم عمر في حياته حتى توفّاه الله ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهم[1].

ونستخلص من المرحلة الثانية في جمع القرآن بعض النتائج:

أ ـ إن جمع القرآن الكريم جاء نتيجة الخوف على ضياعه نظراً لموت العديد من القراء في حروب الردة، وهذا يدل على أن القراء والعلماء كانوا وقتئذٍ أسرع الناس إلى العمل والجهاد لرفع شأن الإسلام والمسلمين بأفكارهم وسلوكهم وسيوفهم، فكانوا خير أمة أخرجت للناس ينبغي الاقتداء بهم لكل من جاء بعدهم.

ب ـ إن جمع القرآن تم بناءً على المصلحة المرسلة، ولا أدل على ذلك من قول عمر لأبي بكر حين سأله كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ: إنه خير. وفي بعض الروايات أنه قال له: إنه والله خير ومصلحة للمسلمين، وهو نفس ما أجاب به أبو بكر زيد بن ثابت حين سأل نفس السؤال، وسواء صحت الرواية التي جاء فيها لفظ المصلحة أو لم تصح؛ فإن التعبير بكلمة خير، يفيد نفس المعنى، وهو مصلحة المسلمين في جمع القرآن، مبنياً على المصلحة المرسلة أول الأمر ثم انعقد الإجماع على ذلك بعد أن وافق الجميع بالإقرار الصريح أو الضمني، وهذا يدل على أن المصلحة المرسلة يصح أن تكون سنداً للإجماع بالنسبة لمن يقول بحجّيتها كما هو مقرر في كتب أصول الفقه.

ج ـ وقد اتضح لنا من هذه الواقعة كذلك كيف كان الصحابة يجتهدون في جو من الهدوء يسوده الود والاحترام، هدفهم الوصول إلى ما يحقق الصالح العام لجماعة المسلمين، وأنهم كانوا ينقادون إلى الرأي الصحيح وتنشرح قلوبهم له بعد الإقناع والاقتناع، فإذا اقتنعوا بالرأي دافعوا عنه كما لو كان رأيهم منذ البداية، وبهذه الروح أمكن انعقاد إجماعهم حول العديد من الأحكام الاجتهادية[2].

---

(1) البخاري رقم (4986).

(2) الاجتهاد في الفقه الإسلامي، عبد السلام السليماني، ص(127).

ما المقومات الأساسية لزيد بن ثابت للقيام بهذه المهمة؟

اختار أبو بكر رضي الله عنه زيد بن ثابت لهذه المهمة العظيمة، وذلك لأنه رأى فيه المقومات الأساسية للقيام بها وهي:

أ ـ كونه شاباً، حيث كان عمره 21 سنة، فيكون أنشط، لما يطلب منه.

ب ـ كونه أكثر تأهيلاً، فيكون أوعى له، إذ مَنْ وهبه الله عقلاً راجحاً فقد يسر له سبيل الخير.

ج ـ كونه ثقة، فليس هو موضعاً للتهمة، فيكون عمله مقبولاً، وتركن إليه النفس، ويطمئن إليه القلب.

د ـ كونه كاتباً للوحي، فهو بذلك ذو خبرة سابقة في هذا الأمر، وممارسة عملية له فليس غريباً عن هذا العمل، ولا دخيلاً عليه[1].

هـ ـ ويضاف لذلك أنه أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ، فعن قتادة قال: سألت أنس بن مالك رضي الله عنه: من جمع القرآن على عهد النبي ﷺ؟ قال: أربعة كلهم من الأنصار: أبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد[2]، وأما الطريقة التي اتبعها زيد في جمع القرآن فكان لا يثبت شيئاً من القرآن إلا إذا كان مكتوباً بين يدي النبي ﷺ، ومحفوظاً من الصحابة، فكان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة، خشية أن يكون في الحفظ خطأ أو وهم، وأيضاً لم يقبل من أحد شيئاً جاء به إلا إذا أتى معه شاهدان يشهدان أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ، وأنه من الوجوه التي نزل بها القرآن[3]، وعلى هذا المنهج استمر زيد رضي الله عنه في جمع القرآن حذراً متثبتاً مبالغاً في الدقة والتحري[4].

---

(1) التفوق والنجابة على نهج الصحابة، حمد العجمي، ص(73).

(2) سير أعلام النبلاء، الإمام الذهبي، (2/ 431).

(3) التفوق والنجابة على نهج الصحابة، ص(74).

(4) الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق، للصَّلَّابيّ، ص(206).

الفرق بين المكتوب في العهد النبوي، وعهد الصدِّيق:

الفرق بين المكتوب في العهد النبوي، وما كتب في عهد أبي بكر: أن القرآن كان مكتوباً في العهد النبوي، مفرقاً في الصحف والألواح والعُسُب، والكرانيف والقصب، وأدوات أخرى، ولم تكن مجموعة سوره في خيط واحد.. وأما الذي تم في أيام أبي بكر، فهو كتابة القرآن في صحف كل سورة أو سور في صحيفة مرتبة آياته على ما حفظوه عن رسول الله ﷺ، فكانت مهمة زيد بن ثابت، أن يكتب ما كان مكتوباً في العهد النبوي في صحف، كل سورة في صحيفة مرتبة فيها الآيات ترتيباً توقيفياً[1].

3 ـ المرحلة الثالثة في جمع القرآن: في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه:

أولاً: الباعث على جمع القرآن في عهد عثمان:

عن أنس بن مالك: أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان رضي الله عنه، وكان يُغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حُذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى! فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصُّحف ننسخُها في المصاحف ثم نردّها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام رضي الله عنهم فنسخوها في المصاحف.

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، ردّ عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كُلِّ أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق[2].

ويؤخذ من هذا الحديث الصحيح أمورٌ منها:

أ ـ أن السبب الحامل لعثمان رضي الله عنه على جمع القرآن مع أنه كان مجموعاً، مرتباً في

(1) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي (2/ 241).
(2) البخاري، كتاب فضائل القرآن رقم (4987).

صحف أبي بكر الصدِّيق، إنما هو اختلاف قراء المسلمين في القراءة اختلافاً أوشك أن يؤدي بهم إلى أخطر فتنة في كتاب الله تعالى، وهو أصل الشريعة، ودعامة الدين، وأساس بناء الأمة الاجتماعي والسياسي والخلقي، حتى إن بعضهم كان يقول لبعض: إن قراءتي خير من قراءتك، فأفزع ذلك حذيفة، ففزع فيه إلى خليفة المسلمين وإمامهم، وطلب إليه أن يدرك الأمة قبل أن تختلف فيتشري بينهم الاختلاف، ويتفاقم أمره، ويعظم خطبه، فيمس نص القرآن، وتُحرَّف عن مواضعها كلماته وآياته، كالذي وقع بين اليهود والنصارى من اختلاف كل أمة على نفسها في كتابها.

ب - أن هذا الحديث الصحيح قاطع بأن القرآن الكريم كان مجموعاً في صحف ومضموماً في خيط، وقد اتفقت كلمة الأمة اتفاقاً تاماً على أن ما في تلك الصحف هو القرآن كما تلقته عن النبي ﷺ في آخر عرضة على أمين الوحي جبريل عليه السلام؛ وأن تلك الصحف ظلت في رعاية الخليفة الأول أبي بكر الصدِّيق، ثم انتقلت بعده إلى رعاية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، ثم لما عرف عمر حضور أجله ولم يول عهده أحداً معيناً في خلافة المسلمين، وإنما جعل الأمر شورى في الرهط المصطفين بالرضا من رسول الله ﷺ، أوصى بحفظ الصحف عند ابنته حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، وأن عثمان اعتمد في جمعه على تلك الصحف، وعنها نقل مصحفه (الرسمي) وأنه أمر أربعة من أشهر قراء الصحابة إتقاناً لحفظ القرآن ووعياً لحروفه وأداء لقراءته وفهماً لإعرابه ولغته: ثلاثة قرشيين، وواحداً أنصارياً، وهو زيد بن ثابت صاحب الجمع الأول في عهد الصدِّيق بإشارة الفاروق، وفي بعض الروايات أن الذين أمرهم عثمان أن يكتبوا من الصحف اثنا عشر رجلاً، فيهم أبيّ ابن كعب، وآخرون من قريش والأنصار[1].

ج - ونأخذ من هذا: أن الفتوحات في عهد عثمان كانت بإذن وأمر من الخليفة، وأن القرار العسكري يصدر من المدينة، وأن الولايات الإسلامية كلها، كانت خاضعة لأمر الخليفة عثمان في عهده، بل يدلُّ على أن هناك إجماعاً من الصحابة والتابعين في جميع الأقاليم على خلافة عثمان، وقدوم حذيفة بن اليمان

(1) عثمان بن عفان، صادق عرجون، ص(171).

إلى المدينة، لرفع اختلاف الناس في قراءة القرآن، يدل على أن القضايا الشرعية الكبرى كان يُستشار فيها الخليفة في المدينة، وأن المدينة ما زالت دار السنّة ومجمع فقهاء الصحابة[1].

ثانياً: استشارة جمهور الصحابة في جمع عثمان:

جمع عثمان رضي الله عنه المهاجرين والأنصار، وشاورهم في الأمر، وفيهم أعيان الأمة، وأعلام الأئمة، وعلماء الصحابة وفي طليعتهم عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وعرض عثمان رضي الله عنه هذه المعضلة على صفوة الأمة وقادتها الهادين المهديين، ودارسهم أمرها ودارسوه، وناقشهم فيها وناقشوه، حتى عرف رأيهم وعرفوا رأيه؛ فأجابوه إلى رأيه في صراحة لا تجعل للريب إلى قلوب المؤمنين سبيلاً، وظهر للناس في أرجاء الأرض ما انعقد عليه إجماعهم، فلم يعرف قط يومئذ لهم مخالف، ولا عرف عند أحد نكير، وليس شأن القرآن الذي يخفي على آحاد الأمة فضلاً عن علمائها وأئمتها البارزين[2].

إن عثمان رضي الله عنه لم يبتدع في جمعه المصحف، بل سبقه إلى ذلك أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه، كما أنه لم يصنع ذلك من قبل نفسه إنما فعله عن مشورة للصحابة رضي الله عنهم، وأعجبهم هذا الفعل وقالوا: نِعْمَ ما رأيت، وقالوا أيضاً: قد أحسن ـ أي في فعله في المصاحف[3].

وقد أدرك مصعب بن سعد صحابة النبي ﷺ حين مشق[4] عثمان رضي الله عنه المصاحف فرآهم قد أعجبوا بهذا الفعل منه[5]، وكان علي رضي الله عنه ينهى مَن يعيب على عثمان رضي الله عنه بذلك ويقول: يا أيها الناس لا تغلوا في عثمان، ولا تقولوا له إلا خيراً ـ أو قولوا خيراً ـ فوالله ما فعل الذي فعل ـ أي في المصاحف ـ إلا عن ملأ منا جميعاً ـ أي الصحابة ـ ... والله لو وليت لفعلت مثل الذي فعل[6].

---

(1) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي (2/ 244).

(2) عثمان بن عفان، صادق عرجون، ص(175).

(3) فتنة مقتل عثمان بن عفان (1/ 78).

(4) مشق يقال: مشق في الكتابة، أي: مدّ حروفها وجوّدها (لسان العرب 10/ 344).

(5) التاريخ الصغير للبخاري (1/ 94) إسناده حسن لغيره.

(6) فتح الباري (9/ 18) إسناده صحيح.

وبعد اتفاق هذا الجمع الفاضل من خيرة الخلق على هذا الأمر المبارك، يتبين لكل متجرد عن الهوى، أن الواجب على المسلم الرضا بهذا الصنيع الذي صنعه عثمان رضي الله عنه وحفظ به القرآن الكريم[1].

قال القرطبي في التفسير: وكان هذا من عثمان رضي الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجلة أهل الإسلام وشاورهم في ذلك، فاتفقوا على جمعه بما صح وثبت من القراءة المشهورة عن النبي ﷺ واطراح ما سواها، واستصوبوا رأيه، وكان رأياً سديداً موفقاً[2].

ثالثاً: الفرق بين جمع الصدِّيق وجمع عثمان رضي الله عنهما:

قال ابن التين: الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان: أن جمع أبي بكر كان لخشيته أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حملته، لأنه لم يكن مجموعاً في موضع واحد، فجمعه في صحائف مرتباً لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبي ﷺ، وجمع عثمان كان لمّا كثر الاختلاف في وجوه القراءة، حتى قرأوه بلغاتهم على اتساع اللغات، فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتباً لسوره، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش محتجاً بأنه نزل بلغتهم، وإن كان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم دفعاً للحرج والمشقة في ابتداء الأمر، فرأى أن الحاجة قد انتهت، فاقتصر على لغة واحدة.

وقال القاضي أبو بكر الباقلاني: لم يقصد أبو بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين، إنّما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ، وإلغاء ما ليس كذلك، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير ولا تأويل أُثبِت مع تنزيل، ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبَتٍ رسمُه ومفروضٍ قراءته وحفظه، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعد.

وقال الحارث المحاسبي: المشهور عند الناس: أن جامع القرآن عثمان، وليس كذلك، إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينه وبين من

(1) فتنة مقتل عثمان بن عفان (1/ 78).
(2) الجامع لأحكام القرآن (1/ 88).

شهده من المهاجرين والأنصار، لما خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات، فأما قبل ذلك، فقد كانت المصاحف بوجوه القراءات المطلقات على الحروف السبعة التي أنزل بها القرآن، فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصدِّيق، وقد قال عليّ رضي الله عنه: لو وليت لعملت بالمصاحف التي عمل بها عثمان[1].

وقال القرطبي: فإن قيل: فما وجه جمع عثمان رضي الله عنه الناس على مصحفه، وقد سبقه أبو بكر إلى ذلك وفرغ منه؟ قيل له: إن عثمان رضي الله عنه لم يقصد بما صنع جمع الناس على تأليف المصحف، ألا ترى كيف أرسل إلى حفصة: أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك؟ وإنما فعل ذلك عثمان لأن الناس اختلفوا في القراءة، لتفرق الصحابة في البلدان واشتد الأمر في ذلك وعظم اختلافهم وتشبثهم، ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة رضي الله عنه[2].

رابعاً: هل المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة:

ذهب الشيخ المحقق صادق عرجون رحمه الله إلى أن: صحف الصدِّيق التي كانت أصلاً للمصحف الإمام بإجماع المسلمين لم تكن جامعة للأحرف السبعة التي وردت صحاح الأحاديث بإنزال القرآن عليها، بل كانت على حرف منها، هو الذي وقعت به العرضة الأخيرة، واستقر عليها الأمر في آخر حياة رسول الله ﷺ، وإنما كانت الأحرف السبعة أولاً من باب التيسير على الأمة، ثم ارتفع حكمها لما استفاض القرآن وتمازج الناس وتوحدت لغاتهم؛ قال الإمام الطحاوي: إنما كانت السعة للناس في الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم، لأنهم كانوا أميين، لا يكتب إلا القليل منهم، فلما كان يشق على كل ذي لغة أن يتحول إلى غيرها من اللغات، ولو رام ذلك لم يتهيأ له إلّا بمشقة عظيمة، وسّع لهم في اختلاف الألفاظ إذا كان المعنى متفقاً، فكانوا كذلك حتى كثرت منهم من يكتب، وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله ﷺ، فقدروا بذلك على تحفظ ألفاظه، فلم يسعهم حينئذ أن يقرأوا بخلافها. قال ابن عبد البر: فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كانت في وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك، ثم ارتفعت تلك

(1) عثمان بن عفان، صادق عرجون، ص(178).

(2) الجامع لأحكام القرآن (1/ 87).

الضرورة، فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد[1].

وقال الطبري: إن القراءة على الأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة، وإنما كان جائزاً لهم ومرخصاً لهم فيه، فلما رأى الصحابة أن الأمة تفترق وتختلف إذا لم يجتمعوا على حرف واحد، أجمعوا على ذلك إجماعاً شائعاً وهم معصومون من الضلالة[2]. وهذا الحرف الذي كتبت به صحف الإجماع القاطع ونقل عنها المصحف الإمام جامع لقراءات القراء السبعة وغيرها، مما يقرأ به الناس ونقل متواتراً عن رسول الله ﷺ، لأن الأحرف الواردة في الحديث غير هذه القراءات[3].

قال القرطبي: قال كثير من علمائنا كالداوودي وابن أبي صفرة وغيرهما: هذه القراءات السبع التي تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة في القراءة بها، وإنّما هي راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة، وهو الذي جمع عليه المصحف[4]، وأقرب الآراء إلى الفهم ـ عند ظننا ـ في معنى الأحرف إنما هو الرأي القائل بأنها هي أفصح لغات العرب وأشهرها، وهي مبثوثة في القرآن كله، وإليه ذهب القاسم بن سلام، وابن عطية في جماعة من الأجلاء، وإليه يرجع نحو سبعة أقوال مما ذكره السيوطي في الإتقان في معنى الأحرف[5].

خامساً: عدد المصاحف التي أرسلها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار:

لما فرغ عثمان رضي الله عنه من جمع المصاحف أرسل إلى كل أفق بمصحف، وأمرهم أن يحرقوا كل مصحف يخالف المصحف الذي أرسله إلى الآفاق، وقد اختلفوا في عدد المصاحف التي فرقها في الأمصار، فقيل: إنها أربعة وهو الذي اتفق عليه أكثر العلماء، وقيل: إنها خمسة، وقيل: إنها ستة، وقيل: إنها سبعة، وقيل: ثمانية، أما كونها أربعة فقيل: إنه أبقى مصحفاً بالمدينة، وأرسل مصحفاً إلى الشام، ومصحفاً إلى الكوفة،

(1) عثمان بن عفان، صادق عرجون، ص(180).
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه.
(4) الجامع لأحكام القرآن (1/ 79).
(5) الإتقان للسيوطي (1/ 144 ـ 148).

ومصحفاً إلى البصرة، وأما كونها خمسة فالأربعة المتقدم ذكرها، ومصحفاً لأهل مكة، وأمّا كونها ستّة فالخمسة المتقدّمة والسادس اختلف فيه، فقيل: جعله خاصاً لنفسه، وقيل: أرسله إلى البحرين.

وأما كونها سبعة فالستة المتقدم ذكرها والسابع أرسله إلى اليمن، وأما كونها ثمانية فالسبعة المتقدم ذكرها، والثامن كان لعثمان يقرأ فيه وهو الذي قتل وهو بين يديه[1]، وبعث ﷺ مع كل مصحف مَن يرشد الناس إلى قراءته بما يحتمله رسمه من القراءات مما صح وتواتر، فكان عبد الله بن السائب مع المصحف المكي، والمغيرة بن شهاب مع المصحف الشامي، وأبو عبد الرحمن السلمي مع المصحف الكوفي، وعامر بن قيس مع المصحف البصري، وأمر زيد بن ثابت أن يقرئ الناس بالمدني[2].

سادساً: موقف عبد الله بن مسعود من مصحف عثمان:

لم يثبت أن ابن مسعود ﷺ خالف عثمان في ذلك، وكل ما روي في ذلك ضعيف الإسناد، كما أن هذه الروايات الضعيفة التي تتضمن ذلك، تثبت أن ابن مسعود رجع إلى ما اتفق عليه الصحابة في جمع القرآن، وأنه قام في الناس وأعلن ذلك، وأمرهم بالرجوع إلى جماعة المسلمين في ذلك[3]. وقال: إن الله لا ينتزع العلم انتزاعاً، ولكن ينتزعه بذهاب العلماء، وإن الله لا يجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة، فجامعوهم على ما اجتمعوا عليه، فإن الحق فيما اجتمعوا عليه... وكتب بذلك إلى عثمان[4]، وقد ورد عن ابن كثير رجوع ابن مسعود إلى الوفاق[5]، وأكد الذهبي ذلك فقال: وقد وَرَد أن ابن مسعود رضي وتابع عثمان ولله الحمد[6].

ولا يلتفت إلى ما كتبه طه حسين في قضية المصحف وعلاقة عثمان مع ابن مسعود وما ساقه بأسلوب مسموم، فيه أفكار أخذها من أساتذته المستشرقين[7]، والذين اعتمدوا

(1) أضواء البيان في تاريخ القرآن، ص(77).
(2) المصدر نفسه، ص(78).
(3) فتنة مقتل عثمان بن عفان (1/ 78).
(4) فتنة مقتل عثمان بن عفان (1/ 79).
(5) البداية والنهاية (7/ 228).
(6) سير أعلام النبلاء (1/ 349).
(7) الفتنة الكبرى (1/ 159).

على روايات ضعيفة وإماميّة في تشويه علاقة الصحابة ببعضهم ـ رضي الله عنهم جميعاً[1].

إن ابن مسعود رضي الله عنه الذي ترك صلاة القصر في منى خشية من الخلاف والفتنة ومتابعة للخليفة، هل يتوقع منه أن يصعد المنبر، ويحرض الناس على الخلاف، وهو القائل: إن الخلاف شر؟[2].

زوّر بعض المؤرخين روايات ونسبوها لابن مسعود وموقفه من عثمان رضي الله عنهما، وأظهروا ـ في تلك الأكاذيب ـ الصحابة قوماً متنازعين متباغضين، متعنتين متفاحشين في القول، وهي روايات ساقطة لا تثبت أمام النقد الهادئ الموضوعي، ويرفضها الذوق المؤمن والعقل الفطن، وقد زعم بعضهم كذباً وزوراً؛ بأن ابن مسعود كان يطعن على عثمان ويكفره، ولما حكم عثمان ضربه حتى مات، وهذا كذب بيّن على ابن مسعود، فإن علماء النقل يعلمون أن ابن مسعود ما كان يكفر عثمان، بل لمّا بويع عثمان بالخلافة سار عبد الله بن مسعود من المدينة إلى الكوفة، ولما وصل إليها، حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مات ـ فلم نرَ يوماً أكثر نشيجاً من يومئذٍ ـ وإنا اجتمعنا أصحاب محمد، فلم نألُ عن خيرنا ذي فُوق، فيابعنا أمير المؤمنين عثمان فبايِعوه[3].

وهذه الكلمات الواضحات أكبر دليل على تلك المكانة الرفيعة لعثمان بن عفان في قلب ابن مسعود وعند جميع الصحابة، أولئك الذين مدحهم الله تعالى ورضي عنهم، وهم خير مَن فَقِه قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠﴾ [الأحزَاب: 70] . فقول عبد الله بن مسعود صدق لا يعدو الحقيقة، كم أنه نابع عن قناعته وصادر عن محض إرادته؛ ما قاله خوفاً ولا خشية، ولم يقذف به هكذا رخيصاً للاستهلاك والتغرير، أو ليحوز مكانة ومنصباً في الخلافة الجديدة، وإذاً فمن بدهيات الأمور وأولياتها أن ليس ثمة حقد أو بغضاء في قلب أحدهما على الآخر، وإذا حدث

(1) فتنة مقتل عثمان بن عفان (1/ 80).

(2) عبد الله بن مسعود، عبد الستار الشيخ، ص(335).

(3) طبقات ابن سعد (3/ 63).

شيء فإنما هو من أجل الحق وصالح المسلمين[1]، ويندرج تحت فقه النصيحة وآدابها وتأديب الخليفة لرعيّته، وأما ما زعم الإماميّة ومَن سار على نهجهم من أن عثمان ضرب ابن مسعود حتى مات، فهذا كذب باتفاق أهل العلم، قال أبو بكر ابن العربي: وأما ضربه لابن مسعود، ومنعه عطاءه فزور[2]. فلا وجهة للرافضة بالطعن على عثمان بقصة ابن مسعود هذه، فإنه لم يضربه عثمان ولم يمنعه عطاءه، وإنما كان يعرف له قدره ومكانته، كما كان ابن مسعود شديد الالتزام بطاعة إمامه الذي بايع له، وهو يعتقد أنه خير المسلمين وقت البيعة[3].

سابعاً: فهم الصحابة لآيات النهي عن الاختلاف:

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: 153]. فالصراط المستقيم هو: القرآن، والإسلام، والفطرة التي فطر الله الناس عليها، والسبل هي: الأهواء والفرق والبدع والمحدثات، قال مجاهد: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾، يعني: البدع والشبهات والضلالات[4].

ونهى الله ﷻ هذه الأمة عما وقعت فيه الأمم السابقة من الاختلاف والتفرق من بعد ما جاءتهم البينات، وأنزل الله إليهم الكتب، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عِمرَان: 105].

ونهى الأمة أن تكون من المشركين، الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، فقال عز من قائل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الرُّوم: 30 ـ 32].

---

(1) عبد الله بن مسعود، ص(324).

(2) العواصم من القواصم، ص(63).

(3) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام (3/ 1066).

(4) تفسير مجاهد، ص(227).

وأخبر ﷺ أن الرسول ﷺ بريء من الذين يفرقون دينهم ويكونون شيعاً وأحزاباً[1]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: 159].

ويظهر من قصة جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه مدى فهم الصحابة رضي الله عنهم لآيات النهي عن الاختلاف، حيث إن الله نهى عن الاختلاف وحذر منه، فلعمق فهمهم لهذه الآيات ارتعد حذيفة رضي الله عنه عندما سمع بوادر الاختلاف في قراءة القرآن، فرحل فوراً إلى المدينة النبوية، وأخبر عثمان رضي الله عنه، بما رأى وبما سمع، فسرعان ما قام عثمان يخطب الناس؛ يحذرهم من مغبة هذا الخلاف، ويشاور الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ في الحل لهذه المحنة التي بدأت بالظهور، وفي مدة قصيرة يحسم الأمر ويغلق باب الخلاف الذي كاد أن ينفتح، بجمع الصحف ونسخها في مصحف واحد من المصادر الموثوقة جداً، وبإغلاق باب الفتنة هذا فرح المسلمون، بينما اغتاظ المنافقون الذين كانوا قد استبشروا ببوادر الخلاف التي كان ينتظرونها بفارغ الصبر، ويسعون إلى تحقيقها، ولما حسم الخلاف، ولم يجد أولئك طريقاً إلى استنهاضه، ازداد حقدهم على عثمان رضي الله عنه وسعوا في التشنيع عليه وتصوير حسنته هذه سيئة، وتلمسوا في سبيل إثبات ذلك خيوط العنكبوت الواهية، ليطعنوا فيه ويسوغوا خروجهم عليه بها، مظهرين للناس أن هذه الحسنة سيئة تستوجب الخروج عليه[2].

إن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لم يتركوا كل قارئ، على قراءته الصحيحة، بل جمعوهم على قراءة واحدة، فاجتمع شملهم وتوحد صفهم، وهذا درس عظيم نستلهمه من دراستنا لتاريخ عهد الخلفاء الراشدين، الحافل بالعبر والدروس ومواطن القدوة[3].

قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يرضى لكم ثلاثاً، أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا مَن ولاّه الله أمركم»**[4].

إن طريق الاعتصام بحبل الله أن نلتزم بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وهذا الأصل من آكد الأصول في هذا الدين العظيم، يقول ابن تيمية رحمه الله: وهذا الأصل العظيم: وهو

(1) دراسات في الأهواء والفرق والبدع، ناصر العقل، ص(49).
(2) فتنة مقتل عثمان بن عفان (1/ 82).
(3) المصدر نفسه (1/ 83).
(4) مسند أحمد (1/ 2، 26).

الإسلام، مما عظمت وصية الله تعالى به في كتابه، ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، مما عظمت به وصية النبي ﷺ، في مواطن عامة وخاصة[1].

ولذلك أمر الله تعالى ورسوله ﷺ بكل ما يحفظ على المسلمين جماعتهم وألفتهم، ونهيا عن كل ما يعكر صفو هذا الأمر العظيم.

إن ما حصل من فرقة بين المسلمين وتدابر وتقاطع، وتناحر، بسبب عدم مراعاة هذا الأصل وضوابطه، مما ترتب عليه تفرق في الصفوف، وضعف في الاتحاد، وأصبحوا شيعاً وأحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون[2].

إن وحدة المسلمين واجتماعهم مطلب شرعي، ومقصد عظيم من مقاصد الشريعة؛ بل من أهم أسباب التمكين لدين الله تعالى، ونحن مأمورون بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فلابد من تضافر الجهود بين الدعاة، وقادة الحركات الإسلامية، وبين علماء المسلمين، وطلبة العلم لإصلاح ذات البين إصلاحاً حقيقياً لا تلفيقياً لأن أنصاف الحلول تفسد أكثر مما تصلح، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ الجهاد نوعان: جهاد يقصد به صلاح المسلمين، وإصلاحهم في عقائدهم وأخلاقهم وآدابهم، وجميع شؤونهم الدينية والدنيوية، وفي تربيتهم العلمية، وهذا النوع هو الجهاد وقوامه، وعليه يتأسس النوع الثاني، وهو جهاد يقصد به دفع المعتدين على الإسلام والمسلمين من الكفار والمنافقين والملحدين وجميع أعداء الدين ومقاومتهم وهذا نوعان: جهاد بالحجة والبرهان واللسان، وجهاد بالسلاح المناسب في كل وقت وزمان[3].

ثم أفرد فصلاً بعنوان: الجهاد المتعلق بالمسلمين بقيام الألفة واتفاق الكلمة[4]. وبعد أن ذكر الآيات والأحاديث الدالة على وجوب تعاون المسلمين ووحدتهم، قال: فإن من أعظم الجهاد السعي في تحقيق هذا الأصل في تأليف قلوب المسلمين واجتماعهم على دينهم ومصالحهم الدينية والدنيوية[5].

---

(1) مجموع الفتاوى (22/ 359).
(2) تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين للصَّلَّابي، ص(307).
(3) وجوب التعاون بين المسلمين للسعدي، ص(5).
(4) المصدر نفسه.
(5) وجوب التعاون بين المسلمين، ص(5).

ولذلك نرى أن الأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المسلمين وتوحيد صفهم من أعظم الجهاد، لأن هذه الخطوة مهمة جداً في إعزاز المسلمين وإقامة دولتهم، وتحكيم شرع ربهم، وهذا من فقه الخلفاء الراشدين، ويتجلى في أبهى صورة في جمع عثمان رضي الله عنه للأمة على مصحف واحد.

❑❑❑

obeikandl.com